ا. د

عبدالجبار العبيدي

مفهوم السنن الالهية في الفكر الاسلامي

١٤٤٦هـ بغداد ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

الأحزاب: ٦٢

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾

فاطر: ٤٣

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المهداة ، حبيبنا وقائدنا وقرة أعيننا محمد ﷺ، وعن آله الطيبين والطهرين، ورضي اللهﷻ عن صحابته الغر الميامين الذين حملوا لواء هذا الدين وأوصلوه بدقة وأمانة للعالمين ، فكانوا السفراء الناصحين والعلماء العاملين ، والقادة المجاهدين الفاتحين .

وبعد..

فإن الرؤية المستقبلية هي جزء من الدين الإسلامي الذي يمثل المستقبل لجميع الأديان السابقة التي كانت تبشر بقدومه والذي يدعو إلى تحقيق مستقبل أفضل في الدنيا والآخرة، لذا يعد استشراف المستقبل يعد معلماً مهماً في نجاح الدعوة والداعية؛ فالعمل الدعوي بحاجة ماسة إلى رؤية مستقبلية متكاملة وواضحة، بعيداً عن الارتجال والعشوائية والتخبط، والداعية إلى الله أولى الناس باستشراف المستقبل والتخطيط له، وقد أبان القرآن الكريم عن سنن الله ﷻ التي يخضع لها الكون فهي ثابتة شاملة مطردة لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان، كما أنها لا تُحابي أحدا، ولا تتخلف عن مسيرتها إلا وفق علم الله تعالى وحِكّمِه وحِكْمتِه، قال ﷻ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ

تَحۡوِيلًا ﴾ [1] ،وقد نجم عن هذا الثبات، وذلك الشمول، أمران: الأول: هو غياب وتلاشي عنصر المصادفة، إذ لا يمكن للمصادفة أن تُثبت قانونًا، أو تقيم نظاماً، أو تُقّوم خللًا. الثاني: أن هذا الثبات والاطراد جعل قيام العلم أمرا ممكنًا؛ إذ لو تغير نظام الوجود وخصائص الأشياء من مكان إلى آخر، أو من زمان إلى زمان؛ لما كانت هناك حقائق علمية ثابتة والقرآن الكريم غني بالجوانب الحضارية التي تتكفل بأن تنشئ أمة وتحيي جيلا، وتقود الناس إلى طريق الله رب العالمين، لكن الأزمة ليست في غياب المنهج الذي يضبط ولكن في العقل الذي يدرك، والقلب الذي يعي، والجارحة التي تعمل وتنفذ.

وقد حث الرسولﷺ أصحابه الكرام على الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى عن طريق الإسلوب المباشر أو عن طريق ضرب المثل وحكاية القصة ومراعاة الأوقات المناسبة لذلك، وإن الأحاديث النبوية عن أخبار الأمم الماضية إنما هو استشراف للمستقبل ، إن مجال الاقتداء برسول الله ﷺمن أجل غد أفضل شامل لميادين الحياة جميعها ويتطلب توخي الدقة في التخطيط للمستقبل مع التوكل على الله تعالى والإيمان بالقضاء والقدر بعيداً عن الشعوذة والكهانة والتنجيم، وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين هم أول من اقتدى بسيرة المصطفى ﷺ في هذا المجال فشهد التاريخ ما شهده من عظمة الإسلام والمسلمين في شتى المجالات.

---

[1] فاطر: من الآية: ٤٣ .

إن استشراف المستقبل له أهمية في إصلاح المجتمع في التأكيد على القيم الإسلامية التي أمرالله ﷻ بها وندب إليها النبي ﷺكالترغيب في طلب العلم والشورى وغيرها للوصول إلى الهدف وتجنب المخاطر والمشاكل المحتملة، فهو يتطلب معرفة ومهارة ويستلزم عزيمة وإرادة ويهدف إلى جلب خير أو دفع ضرر.

وقد نصت السنة النبوية على كثير من الأحداث المستقبلية والمتغيرات التي ستقع وحذرت من فعل أمور ورغبت في فعل أمور أخرى، وسيرته مليئة بأمور كثيرة ستقع قبل وقوعها وهو من الغيب الذي كشفه الله تعالى له وأذن له في كشفه لنا لنسترشد بما سيكون قبل أن يقع ونستعد له عوناً لنا وتخفيفاً علينا كإخباره عن زوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وغيرها كثير

إن الجيل الرائد من أصحاب الرسول ﷺساد الدنيا، وفتح البلاد وقاد العباد بأمر الله تعالى؛ لأنه استوعب القرآن الكريم استيعابا عمليا فكان يتعلم العلم والعمل معا، من هنا استطاع أن يؤسس حضارة ويبني فكرا وينشئ جيلا بل أجيالا، لكن عندما تراخت قبضة المسلمين عن مفاهيم دينهم أصبحوا لا يبرزون في دنيا ولا يتعمقون في دين.

وإن الاهتمام بالمستقبل والدراسات المستقبلة ليدل على تطور الحضارة، وهو من المقومات الرئيسة في صناعة النجاح، سواء على المستوى الشخصي، أو على المستوى الاجتماعي، أو الحضاري.

ولمقتضيات البحث اشتملت الخطة بعد هذه المقدمة على أربعة فصول وكالاتي:

<u>الفصل ألآول: مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح وفي السياق القرآني و السنة النبوية المطهرة ،و خصائصها أنواعها،</u> واشتمل على مبحثين:الأول : **مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح** ، وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: : **مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح**

أولاً : مفهوم السنن الإلهية في اللغة

ثانياً : مفهوم السنن الإلهية في الاصطلاح.

والمطلب الثاني: السنن الإلهية في السياق القرآني

والمطلب الثالث: **السنن الإلهية** في السنة النبوية المطهرة

المبحث الثاني السنن الإلهية خصائصها أنواعها، وفيه مطلبان:
الأول: خصائص السنن الإلهية، والمطلب الثاني : أنواع السنن الالهية
<u>الفصل الثاني: حجية السنن الالهية ومنزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته، وأهمية دراسة السنن الإلهية، دلالة السنن الإلهية على العقيدة ،</u>
وفيه ثلاثة مباحث: الأول حجية السنن الالهية، واشتمل على ثلاثة مطالب :
المطلب الأول: قطعية الثبوت، **المطلب الثاني :السـنن الربانية والنسـخ، والمطلب الثالث :السنن الربانية والإعجاز**

اما المبحث الثاني فكان : لمنزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته وأهمية دراستها، وفيه مطلبان: المطلب الأول: منزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته، المطلب الثاني :أهمية دراسة السنن الإلهية

وجاءالمبحث الثالث ليبين : دلالة السنن الإلهية على العقيدة، وفيه ثلاثة مطالب : الأول : دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالله ﷻ، والثاني: دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالرسل، و المطلب الثالث: دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالقدر

اما **الفصل الثالث: أثر فقه السنن الإلهية في الحياة الدنيا، وفيه ثلاثة مباحث : المبحث الأول: السنن الإلهية ومدى ارتباطها** في الحياة الدنيا، وفيه مطلبان: الأول: **ارتباط السنن الكونية بحياة الناس،** والمطلب الثاني: **ارتباط السلوك الإنساني بالأحداث الكونية**

أولاً : ارتباط الطاعة بالأحداث الكونية الاستغفار والتوبة

ثانياً :الإيمان والتقوى سبب لفتح بركات السماء والأرض

ثالثاً : ارتباط المعصية بالأحداث الكونية.

رابعاً: الاستكبار والإجرام سبب لوقوع الرجز

خامساً: التكذيب بالآيات سبب للإغراق

وجاءالمبحث الثاني ليبين : أثر الوعي بالسنن في حياة الناس بمطلبين:

المطلب الأول: سنة الله في النصر والتمكين، والمطلب الثاني: سنة التمكين جزاء عادل للمؤمنين المصدقين، **المبحث الثالث: السنن الإلهية في تغيير المجتمعات ، وفيه مطلبان: الأول : مفهوم السبب لغة واصطلاحاً، والمطلب الثاني :ربط الأسباب بمسبباتها .**

اما **الفصل الرابع فكان بعنوان : السنن الإلهية و استشراف المستقبل في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية**، وفيه مبحثان: المبحث الأول: تعريف الاستشراف وصيغ المستقبل ، وتحته مطالب :المطلب الأول: الاستشراف، لغةً واصطلاحاً، والمطلب الثاني: معنى المستقبل، لغةً واصطلاحاً، والمطلب الثالث: استشراف المستقبل في القرآن الكريم، والمطلب الرابع : استشراف المستقبل في السيرة النبوية، والمطلب الخامس: استشراف المستقبل عند المفسرين .

اماالمبحث الثاني: فجاء ليبين : أهمية استشراف المستقبل والعلاقة بيننها، في مطلبين :المطلب الأول : أهمية استشراف المستقبل، والثاني: العلاقة بين السنن الإلهية واستشراف المستقبل.

هذا جهد المقل فإن أصبت فمن الله تعالى وحده لا شريك له ، وإن أخطأت وقصرت وأساءت فمن نفسي المخطئة والمقصرة والمسيئة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الفصل ألآول

مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح وفي السياق القرآني و السنة النبوية المطهرة ،و خصائصها أنواعها

المبحث الأول

مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح وفي السياق القرآني و السنة النبوية المطهرة

المطلب الأول: : مفهوم السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح

أولاً : مفهوم السنن الإلهية في اللغة

تعني السنة في كتب اللغة : السيرة والطريقة، حسنة كانت أو سيئة، مقبولة كانت أو مرذولة [١] ويري ابن الأثير أن السنة تعني الطريقة والسيرة؛ وَفِي حَدِيثِ الْمَجُوسِ (سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أهلِ الْكِتَابِ)[٢] أَيْ خُذُوهم عَلَى

---

[١] لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، ط/٣، ١٤١٤ هـ، ١٣/ ٢٢٥.

[٢] المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط/١،١٤٠٩هـ ، تمام الأثر: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّد ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، اسْتَشَارَ النَّاسَ فِي الْمَجُوسِ فِي الْجِزْيَةِ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ: (سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ) كِتَابُ الْسير، مَا قَالُوا فِي الْمَجُوسِ تَكُونُ عَلَيْهِمْ جِزْيَةٌ، برقم (٣٢٦٥١) ٦/ ٤٣٠، شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق:

طَرِيقَتِهِمْ وأجْرُوهم فِي قَبُول الجِزْية مِنْهُمْ مُجْراهُم) [١]، ويقول الفيروز آبادي: أن الأصل فيها الطريقة والسيرة، ، وسنة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله قد يقال لطريق حكمته وطريق طاعته، وقوله ﷻ :﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾[٢]، تنبيه أَنَّ فروع الشرائع وإن اختلفت صُوَرها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى ومرضاته وجِواره.

قد تكرّر فى التنزيل وفى الحديث ذكرُ السُنَّة وما يتصرّف منها. والأَصل فيها الطريقة والسيرة، ومنه: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمِ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ

شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط/٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، بلفظ: عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ذَكَرَ الْمَجُوسَ، فَقَالَ: مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ فِي أَمْرِهِمْ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: (سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ) كِتَابُ السِّيَرِ وَالْجِهَادِ، بابُ أَخْذِ الجِزْيةِ مِن المجُوسِ، برقم (٢٧٥١)، ١١/ ١٦٩.

[١] النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ٢/ ٤١٠.

[٢] فاطر:من الآية: ٤٣.

بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[١] قوله ﷺ: (مَنْ سَنَّ سُنَّة حَسَنَة) أَى طَرَّق طريقة حَسَنة. وإذا أُطلقت فى الشرع فإنما يراد بها ما أَمر النبى ﷺ به أَو نهى عنه أَو نَدَبَ إليه، قولا وفعلا، ممّا لم ينطق به الكلامُ العزيز. ولهذا يقال: أَدلَّة الشرع الكتاب والسنَّة، أَى القرآن والحديث. وفلان متسنِّن، أَى عامل بالسنَّة، وفى الحديث: (إنَّما أُنَسَّى لأَسُنّ)[٢]، أَى إنَّما أُدفع إلى النسيان لأَسوق النَّاس بالهداية إلى الطَّريق المستقيم، وأُبيّن لهم ما يحتاجون إليه أَن يفعلوا إذا عَرَضَ لهم النسيان. ويجوز أَن يكون من سنَنْت الإبلَ إذا أَحسنتَ رِعْيتها والقيامَ عليها.واستنَّ الفرسُ، وهو عَدْوه إقبالا وإدبارًا فى نشاطٍ وزَعَل.

وسَنّ الماءَ على وجهه: صبّه صبًّا سهلا. وسنّ الحدِيدة: حدّدها. وسِنَانٌ مسنونٌ وسَنِينٌ. وسَنَّ سِكّينَه بالمِسَنّ (والسِّنان)[٣].

---

[١] المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، كتاب الْعِلْمِ، بَابُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ، برقم(١٠١٧)٤/ ٢٠٥٩.

[٢] شرح السنة، البغوي، كِتَابُ الصَّلاةِ، بَابُ مَنْ سَلَّمَ عَنْ رَكْعَتَيْنِ ،برقم(٧٦٠)٣/ ٢٩٦.

[٣] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م، ٣/ ٢٦٧وما بعدها.

والزمخشري استوعب لفظ السنة وتقلباتها، فقال: سن سنة حسنة ولزم سنن الطريق: قصده. وسنن الفرس وهو عَدْوه إقبالا وإدبارًا فى نشاطٍ وزَعَل ، وسن إبله أحسن رعيها وصقلها كما يسن السيف. وسن الأمير رعيته: أحسن سياستها. وفرس مسنونة: متعهدة بحسن القيام عليها.. وجاء بالحديث على سننه على وجهه ...واستنت الطرق: وضحت كل مذهب، ومنه قول القائل:

ولو شهدت مقامي بالحسام على ... حدّ المسناة حيث استنت الطرق

واستن به الهوى حيث أراد إذا ذهب به كل مذهب. قال: دعاني إلى ما يشتي فأجبته ... وأصبح بي يستن حيث يريد يعني الهوى.[١] .

وأما الراغب فيقول: سنة الوجه: طريقته، وسنة النبيﷺ :طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته.. وقوله تعالى : ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[٢] قيل: متغيّر، ، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾[٣] (معناه } معناه: لم يتغيّر [٤] .

---

[١] أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)،تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م،١/ ٤٧٨وما بعدها.

[٢] الحجر: من الآية:٢٦.

[٣] البقرة: من الآية:٢٥٩ .

[٤] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط/١، ١٤١٢ هـ، ص ٤٢٩.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : أن السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار[١]، ويقول الإمام الرازي: أن السُّنَّةُ فَهِيَ (الطَّرِيقَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَالْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ) [٢]

وقال محمد رشيد رضا: (وَأَقُولُ: السُّنَنُ جَمْعُ سُنَّةٍ وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْمُعَبَّدَةُ وَالسِّيرَةُ الْمُتَّبَعَةُ أَوِ الْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ قِيلَ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: سَنَّ الْمَاءَ إِذَا وَالَى صَبَّهُ، فَشَبَّهَتِ الْعَرَبُ الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ بِالْمَاءِ الْمَصْبُوبِ، فَإِنَّهُ لِتَوَالِي أَجْزَائِهِ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ يَكُونُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ.[٣] وأفاد عندما ربط بين كلمة سنة التي نتحدث عنها و(السنة) المدونة؛ وهي فعل الرسول ﷺ وأقواله وتقريراته بقوله: (أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ إِنَّمَا سُمُّوا بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لِأَنَّهُمْ سَارُوا فِي الِاهْتِدَاءِ بِالْإِسْلَامِ عَلَى السُّنَّةِ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيَانِ الْقُرْآنِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

---

[١] مجموع الفتاوى ،تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، وساعده ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة – السعودية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م ، ٣/ ٢٦٧وما بعدها.

[٢] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/٣، ١٤٢٠ هـ، ٩/ ٣٦٩.

[٣] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ٤/ ١١٥.

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] وَتَلَقَّاهَا عَنْهُ بِالْعَمَلِ جَمَاعَةُ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ أَصَابَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي حَصْرِهِ حُجِّيَّةَ الْإِجْمَاعِ الدِّينِيِّ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَمَا رُوِيَ مِنَ الْآثَارِ فِي شُذُوذِ أَفْرَادٍ عَمَّا ثَبَتَ عَمَلُ الْجُمْهُورِ بِهِ فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ، فَعَمَلُ الْجُمْهُورِ هُوَ السُّنَّةُ وَهُمُ الْجَمَاعَةُ. وَالْأَقْوَالُ وَحْدَهَا لَا يَتَبَيَّنُ بِهَا الْمُرَادُ بَيَانًا قَطْعِيًّا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ كَالْأَفْعَالِ وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيٌّ الْمُرْتَضِي كَرَّمَ اللهُ تَعَالَى وَجْهَهُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا عِنْدَمَا أَرْسَلَهُ لِمُحَاجَّةِ الْخَوَارِجِ: احْمِلْهُمْ عَلَى السُّنَّةِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ ذُو وُجُوهٍ. فَمُرَادٌ بِالسُّنَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَاهَا الْمُوَافِقِ لِلُّغَةِ لَا الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ لِلْمُحَدِّثِينَ وَسَائِرِ عُلَمَاءِ الشَّرْعِ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَخْبَارَ الْقَوْلِيَّةَ وَغَيْرَهَا)[2].

وبالرغم من استفاضة اللغويين في معاني السنة، إلا أنهم قلما يتوقفون عند السنة مسندة لله سبحانه، ولذلك كأن التناول المعجمي للسنن الإلهية شديد الإيجاز[3] ، ولكن يلاحظ أن المعاني اللغوية للسنن الإلهية لا تخرج عن

---

[1] النحل:من الآية: ٤٤.

[2] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا ، ٨/ ٢٢٥.

[3] ينظر: حجية السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم، مصطفى الشكعة ، الموسوعة القرآنية المتخصصة، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ٥١٨.

الدلالات الشرعية لكلمة سنة[١]، وعليه فإضافة السنن لله عبر وصفها بالإلهية يدل لغة على طرق الله سبحانه وعاداته في معاملة خلقه.

ونسبة السنن الله تضيف لغة معنى جديدا، إلى جانب الطريقة والسيرة، وهو معنى الحكم فتكون المعاني اللغوية للسنن تتمحور حول معنى الجريان والاطراد، وتتفرع ضمن ثلاث معاني كلية هي الطريقة والسيرة والحكم.

وعلى ما تقدم: فأن السنة هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبا على سلوك البشر[٢].

ثانياً : مفهوم السنن الإلهية في الاصطلاح:

على ضوء المعاني اللغوية السابقة عرَّف أهل العلم الربانيون السنة اصطلاحاً بتعريفات شتى، كلّ حسب تخصصه الحديثي، أو الأصولي، أو الفقهي : فهي عند العلماء الأصوليين عبارة عما صدر عن رسول الله ﷺ ما عدا القرآن الكريم من قول، أو فعل، أو تقرير، فيخرج من السنة عندهم ما صدر من غيره ﷺ رسولا كان أو غير رسول، وما صدر عنه ﷺ قبل البعثة، وأما الفقهاء فهي عندهم عبارة عن الفعل الذي دل الخطاب على طلبه من غير إيجاب، ويرادفها المندوب والمستحب، والتطوع، والنفل، والتفرقة بين معاني هذه الألفاظ

---

[١] ينظر: ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، عبد العزيز برغوث، مجلة إسلامية المعرفة، سنة/ ١٣عدد/ ٤٩ ،١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م، ص٢٤.

[٢] مفهوم السنن الربانية، رمضان خميس زكي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط/١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ٣١.

اصطلاح خاص لبعض الفقهاء، وقد تطلق على ما يقابل البدعة منه قولهم طلاق السنة كذا، وطلاق البدعة كذا، فهم بحثوا عما صدرعن رسول الله ﷺ الذي تدل أفعاله على حكم شرعي، وأما المحدثون، فإن الرأي السائد بينهم (ولا سيما المتأخرين منهم) أن الحديث والسنة مترادفان متساويان يوضع أحدهما مكان الآخر وعلى هذا المعنى قال العلامة الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (الحديث النبوي عند الإطلاق ينصرف إلى ما حدث به رسول الله ﷺ بعد النبوة من قول أو فعل أو إقرار، فإن سنته ﷺ ثبتت عن هذه الوجوه الثلاثة وإن كان تشريعا إيجابا أو تحريما أو إباحة وجب اتباعه فيه ﷺفإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى فلا يكون خبرهم إلا حقاً) [١]، فالسنة على هذا المعنى في اصطلاح أهل الحديث ما أثر عن رسول الله ﷺمن قول أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية[٢].

---

[١] مجموع الفتاوى شيخ الإسلام،ابن تيمية، ١٨/٦-١٠.

[٢] ينظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ)، المكتب الإسلامي: دمشق – سوريا، بيروت – لبنان، ط/٣، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م (بيروت) ، ص٤٧، حجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي، عبد القادر بن حبيب الله السندي، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، ط/٨، العدد/٢،١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، ص ٩٠وما بعدها، السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ومكانتها من حيث الاحتجاج والمرتبة والبيان والعمل، رقية بنت نصر الله نياز، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د.ط، د.ت) ص ٥.

وتقابل السنة عند أهل الحديث البدعة ، وهي إحداث ما لم يكن عليه المسلمون في عهد النبوة والراشدين ، أي ما استحدث في الدين في القرون التالية ، عَنْ عِرْبَاضٌ بْنَ سَارِيَةَ:قال صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)[١].

---

[١] مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون،إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، برقم(١٧١٤٥) ٢٨/ ٣٧٥، سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط/١، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م، كتاب السنة، باب في لزوم السُّنَّة، برقم(٤٦٠٧)٧/ ١٦وما بعدها، المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤١١ ـ ١٩٩٠،برقم(٣٣٢)١/ ١٧٦.

وقال الكفوي،(وَشرعا: اسْم للطريقة المرضية المسلوكة فِي الدّين من غير افتراض وَلَا وجوب وَالْمرَاد بالمسلوكة فِي الدّين مَا سلكها رَسُول اللهﷺ أَو غَيره مِمَّن هُوَ علم فِي الدّين كالصحابة رَضِي الله عَنْهُم) [١]، لقَوْله ﷺ: (عَلَيْكُم بِسنتي وَسنة الْخُلَفَاء الرَّاشِدين من بعدى)[٢]، **قال البُوَيطي:** (فأقول لكم: إلزموا (بسنتي) أي: بطريقتي وسيرتي (و) بـ (سنة الخلفاء الراشدين) أي: المرشدين للأمة إلى الصراط المستقيم، قيل: هم الخلفاء الأربعة رضوان الله تعالى عليهم، وقيل: بل هم ومن سار سيرتهم من أئمة الإسلام المجتهدين في الأحكام؛ فإنهم خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام في إعلاء الدين وإحياء الحق وإرشاد الخلق إلى الصراط المستقيم والأئمة (المهديين) أي: الذين هداهم الله تعالى الدين القويم)[٣] .

المعنى التشريعي لا تعنينا في هذا البحث، فما أبحثه هو (سنة اللهﷻ) لا سنة نبيهﷺ: ولذا فسأقتصر في التعريف الاصطلاحي على ما يتعلق بسنة اللهﷻ

---

[١] الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، (د.ط،د.ت) ص٤٩٧.

[٢] سبق تخريجه.

[٣] شرح سنن ابن ماجة المسمى (مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه والقول المكتفى على سنن المصطفىﷺ) ، محمد الأمين بن عبد الله بن يوسف بن حسن الأُرمي العَلَوي الأثيوبي الهَرَري الكري البُوَيطي، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة: الأستاذ الدكتور هاشم محمد علي حسين مهدي، دار المنهاج، المملكة العربية السعودية – جدة، ط/١، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م، ١/ ١٦٢.

يستعمل المؤلفين جملة مصطلحات للتعبير عن السنن الإلهية:

١. مصطلحات تدل على ارتباط السنن بالله ﷻ، وهذا ما يتجلى في ألفاظ كفعل الله وحكمه ومشيئته وشريعته وحكمته وقدره وكلمته وأمره وإرادته...

٢. و مصطلحات تعرف السنة من جهة كونها صارمة لازمة الحدوث، وهذا ما يدل عليه بجلاء مصطلح القانون والمصطلحات المقاربة له في هذا المعنى من مثل: الناموس–الضابط– القاعدة – النظام – الأصل – القوة – السبب...

٣. طائفة ثالثة تشير إلى السنة من حيث كونها منهجا وأسلوبا مسلوكا وطريقا متبعا، وهو ما توحي به ألفاظ: الطريقة – السيرة – المنهج والنهج – الأسلوب...

٤. وباقي المصطلحات تشير للسنن كعادات وطبائع وخصائص للكون والبشر، مما يشير لالتصاقها بالمخلوقات وانصباغهما، بحيث صارت اعتبارات معتادة ونماذج ثقافية مجسدة لحركة السنن الإلهية.

وعليه ، تكون التعاريف الموظفة لتلكم لمصطلحات، تصب جميعها في أحد المعاني التالية:

١. مصدر السنن وغاية حدوثها، وهذا يتجلى في ألفاظ كفعل اللهﷻ وحكمه ومشيئته وشريعته وحكمته وقدره وكلمته وأمره وإرادته...

٢. لزوم حدوث السنن وصرامتها بما يجسد قانونيتها التي تعود إلى ما يدل عليه بجلاء مصطلح القانون والمصطلحات المقاربة له في هذا المعنى من مثل: الناموس–الضابط– القاعدة – النظام – الأصل – القوة – السبب...

٣. أو تكرر حدوث السنن الإلهية، بما يجعلها طريقة متبعة، أي بمدلولات تشير إلى السنة من حيث كونها منهجا وأسلوبا مسلوكا وطريقا متبعا، وهو ما توحي به ألفاظ: الطريقة – السيرة – المنهج والنهج – الأسلوب...

٤. ثم باعتبار مآل ونتيجة تكرار حدوثها، مما يحولها إلى عادات واعتبارات وطبائع وخصائص للكون والبشر ، مما يشير لالتصاقها بالمخلوقات وانصباغهما، بحيث صارت اعتبارات معتادة ونماذج ثقافية مجسدة لحركة السنن الإلهية[١].

أن التناول العلمي (الاصطلاحي) للسنن لا يبتعد عند الكثيرين عن الخطوط العامة والفضاءات الدلالية لغويا وتفسيريا[٢]. وهو ما لا يؤدي الغرض المتوخى من طرح مفهوم محوري، كسنة الله، فهو يدعو لدراسة السنن بوصفها مفهوما حيويا فعالا له صلة مباشرة بتفاعلات الواقع وتدافعات الحياة وصيرورة الأحداث والواقع[٣] ، ثم يقرر أنه يمكن تحديد أربعة مداخل لتحديد مفهوم السنن[٤].

الفرع الاول: السنن بوصفها إرادة اللهﷻ وحكمته ومشيئته :

---

[١] ينظر هذه الاعتبارات في : ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية، برغوث، ص٣٣.

[٢] ينظر: المرجع السابق ، ص٣٢وما بعدها.

[٣] ينظر:المرجع السابق، ص٤٤.

[٤] ا ينظر:لمرجع السابق،ص٣٣.

تطرح السنن من هذا المنظور على أنها قرار إلهي[١] وممارسة لمعاني القوة والقدرة، وتدبير الشؤون[٢].

وقد ذكر السيد محمد رشيد رضا جملة ألفاظ ومعاني تدل على هذا البعد للسنن[٣] بمعناها الرباني، ومنها: النظام الإلهي – **الأقدار** التي يقوم عليها هذا النظام في الكون – **أوامر** اللهﷻ التكوينية الجارية في الكون – **أحكام** اللهﷻ **الفعلية** الجارية في الخلق، هي القسيم المقابل لأحكام اللهﷻ التكليفية المودعة في الكتاب والسنة[٤].

اولاً : السنن فعل اللهﷻ:

---

[١] ينظر:المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر(المتوفى: ١٣٥٣هـ) ، دار التعارف، بيروت– لبنان، ط/٢، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م، ص ٧٧ يقول باقر الصدر: كل قانون من قوانين التاريخ هو كلمة الله سبحانه وهو قرار رباني.

[٢] ينظر : حول دراسة السنن الإلهية، برغوث، ص٣٣.

[٣] ينظر: مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، السيد محمد رشيد رضا نموذجا، حازم زكريا محي الدين، دار النوادر، دمشق، سوريا، ط/١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، ص ١١٤.

[٤] ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ٤١/١، ٢٦٧/٤، ٧/ ٢٣٦، ٥٣٣/٨.

عرفت السنة على أنها **فعل** اللهﷻ في الأمم، [١] وعرفت السنة ما اطرد من **فعل اللهﷻ** في معاملة الأمم والأفراد، بناء على أعمالهم وسلوكهم ومواقفهم من شرع الله ﷻوأثر ذلك في الدنيا والآخرة[٢]، وعرفت بانها **الفعل** الإلهي المطرد الذي لم يقع فيه استثناء وتم به انضباط أمر الكون وأن السنن الإلهية هي ما يجري من الله تعالى **فعلا وإخبارا** [٣]، جمع هذا التعريف بين الفعل الإلهي المعبرعن الكون، والإخبار الإلهي المشير للوحي، مما يدلّ على رؤية شمولية للسنن لا تقصر على السنن الكونية فقط، بل تشمل السنن التشريعية أيضا.

ثانياً : السنن حكم الله ومشيئته وشريعته

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أن السنة الإلهية **حكم** اللهﷻ في الأمور المتماثلة[٤] ، وقال كنعان: (السنة هي **حكم** الله ﷻفي خليقته)[١]، قال ﷻ

---

[١] ينظر: حديث الأحاديث، د.علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، طرابلس الغرب،(د.ط)، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ص ١٣١، وينظر: السنن الالهية في الحياة الانسانية واثر الايمان بها في العقيدة والسلوك، د . شريف الشيخ صالح احمد الخطيب، جامعة ام القرى، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م، (اطروحة دكتوراه)، ص٢٦.

[٢] السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مجدي محمد عاشور، دار السلام، القاهرة، مصر،ط/١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ، ص٣٦.

[٣] علاقة السنن الإلهية بالقوانين الكونية والاجتماعية، ناهد يوسف رزق يوسف، كتاب المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية،كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م، ص٩٦.

[٤] جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى : ٧٢٨هـ)

سُـنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ ﴾[٢] ، قال ابن كثير: سنة الله:هي حكم الله [٣] ،

وقال الكفيشي: (سنة اللهﷻ في الخلق تمثل **حكم** الله ﷻ**ومشيئته** في خليقته)[٤] .

ويرى بكار: ان سنن الله ﷻ عبارة عن **أحكام** علوية ماضية مستمرة اقتضتها مشيئة اللهﷻ وحكمته البالغة[٥] ، يقصد في المجال النفسي والاجتماعي والحضاري وكل ما له صلة بالإنسان بوجه من الوجوه ونلحظ ارتباط معنى الحكم بمعنى المشيئة والحكمة في التعريفين الأخيرين؛ ويشمل معنى الحكم وحي الله ﷻوشرعه، فسنة اللهﷻ **شريعته** وطريقته، وما جرى من نظامه في

تحقيق : د. محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، ط/١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م،١/ ٥٤وما بعدها، وينظر : مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، حازم زكريا محي الدين،ص٦٩.

[١] أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد محمد كنعان، دار النفائس، بيروت ، لبنان،ط/١، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م، ص٥٢.

[٢] الأحزاب: من الآية: ٣٨

[٣] تفسير القرآن العظيم (ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط/١، ١٤١٩ هـ، ٦/ ٣٨٠.

[٤] حركة التاريخ في القرآن، عامر الكفيشي، دار الهادي، بيروت، لبنان،ط/١، ١٤٢٤ هـ ـ٢٠٠٣م، ص٢٢٥ وما بعدها.

[٥] هي هكذا، كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار، دار السلام، القاهرة، مصر، ط/١، ٢٠٠٩م، ص ١٠.

خلقه[١] ، أما الذي يليه فتبع له، فأصول الحكمة ايات علل الشريعة، كما هو جلي في التعريف ذاته.

والسنن القرآنية أصول الحكمة، والحقائق التي تنتهي إليها علل الشريعة الإسلامية الغراء[٢].

ثالثا: السنن قدر اللهﷻ وكلمته وأمره وإرادته

فالسنن بهذا المعنى أقدار اللهﷻ وكلماته وأوامره وأحكامه، مما يدلّ على قدرته تعالى ومشيئته. فعرفت بانها أمر اللهﷻ وقدره الثابت الذي لا يتبدل [٣] ، وبان

السنة مقادير إلهية وأحكام ربانية مترتبة على أفعال العباد وتوجهاتهم،كل ذلك ضمن مشيئة الله ﷻ وقدرته[٤]. وعرفت سنن الله القرآنية بانها أقدار الله ﷻ وعهوده الثابتة وعهوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها، ولا تحويل يعتريها، ولا تغيير يشملها، ولا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا[٥]، وعرفت

---

[١] معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، تقديم الدكتور عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط/٣، (د.ت)، ص ١٥٤.

[٢] القواعد الكلية للسنن الإلهية، رشيد كهوس، مجلة المنار الجديد، القاهرة، مصر، سنة/١٢، ٢٠٠٩م ،٢ العدد/ ٤٥ ، ص ١٤.

[٣] . السنن الإلهية في قيام الأمم وسقوطها، فتحي شهاب الدين،دار النشر للجامعات، القاهرة، ط/١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ص١١.

[٤] قصة الاختلاف،دراسة سننية، رندا عوني، دار العلوم، عمان، الأردن،ط/١، ٢٠٠٥م، ص٢٦.

[٥] القواعد الكلية للسنن الإلهية، كهوس، ص ٢٦هامش.

السنن بانها تجلّ من تجليات القدرة والحكمة والإرادة الإلهية في ضبط موازين الحياة والوجود الكوني والبشري [١].

يلاحظ على هذه التعاريف أنها تضفي على السنن الإلهية مسحة عقدية فلسفية وروحية، ما دامت مربوطة بالله ﷻ مباشرة، منسوبة لفعله وخبره، وأمره وقدره وحكمه ومشيئته.

فالسنن بهذا المعنى– تعبر عن ارتباط الخلق بالخالق وأن فعل الله ﷻمتصل مباشرة بحياة الإنسان عن طريق سنته، كما تدل على أن فعل الإنسان له غاية، تؤكد على الإرادة الربانية في هداية الخلق[٢] .

الفرع الثاني: السنن بوصفها القانون والنظام الإلهي :

السنن بهذا المعنى قواعد وضوابط ونواميس لنظام إلهي ثابت محكم. وهو ما يتجلى في التعريفات المعاصرة للسنن الإلهية.

أولا: السنن بمعنى القوانين

يقول الإمام محمد عبده على هذا المصطلح: وعلى حسبها (أي السنن) تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم **بالقوانين** التي تجري على الناس جميعا دون استثناء مؤمنين وغير مؤمني ، وقيل السنة الإلهية هي **القوانين** أو الضوابط التي تتحكم في عملية التحضر [٣].

---

[١] ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية، برغوث، ص١٨.

[٢] المرجع السابق ، ص٣٤.

[٣] الإسلام دين العلم والمدنية، محمد عبده بن حسن خير الله (المتوفى: ١٣٢٣هـ)

ويقول يوسف القرضاوي: السنن تلك **القوانين** التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما أن لها صفة الثبات والدوام[١] .

وتعرف السنن بانها : **القوانين** المطردة الثابتة التي تحكم حركة الحياة والأحياء وتحكم حركة التاريخ وتتحكم بالدورات الحضارية ، فهي **القانون** الذي يحكم سير الفعل البشري [٢]، والسنن عند الوزير: (مجموع **القوانين** التي يسير وفقها الكون، والتي يستفيد منها الكائن الإنساني بما يؤهله فيسخرها ويستفيد منها [٣]. ويقول كذلك:هي القواعد والضوابط التي تضمنتها السنن التشريعية التي جاء بها الرسل منسجمة مع سنن المنطق وناموس الكون، مكملة لها في

، تحقيق عاطف العراقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د. ط) ،١٩٩٨ص١٣٢، وينظر: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، محمد هيشور ، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط/١،١٤١٧ هـ ـ١٩٩٧م، ص١٢، ص٣٦.

[١] العقل والعلم في القرآن، د. يوسف عبد الله القرضاوي(المتوفى: ١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م ، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط/١٤١٦،١هـ ـ ١٩٩٦م، ص٢٧٩.

[٢] ينظر: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الدار العالمية للكتاب الإسلامي–الرياض–السعودية، ط/٢، ١٤١٤ هـ ـ١٩٩٤م، ص١٩، السنن التاريخية في القرآن المجيد، إياد الركابي، دار النهضة الإسلامية، الحمراء، بيروت، ط/١،١٩٩٦م، ص١٠، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط/٣ ،١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٤٨.

[٣] دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، ابراهيم بن علي الوزير، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط/٤، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص٧.

الجانب الاختياري الحر، مضيئة للعقل سبل الحقائق[١] ، أما أحمد محمد كنعان فالسنة عنده : (هي مجموعة القوانين التي سنها الله ﷻلهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها) [٢]، ويعرف زيدان السنة بأنها :(القانون الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفراد وأمما وجماعات)[٣]،ويقول عنها بلفظ آخر: السنة هي القانون العام الذي وضعه اللهﷻ لحكم سلوك الشبر وأفعالهم وما يصيبهم[٤] هذا عن السنن الاجتماعية، أما السنن الكونية فيعرفها قائلا أنها : (القانون العام الذي تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية) [٥].

وقيل : هي تلك القوانين، التي لا حيلة للفكرمنفردا أو مجتمعا مع حركة الإنسان في تغييرها أو منع اضطهادها) [٦].

وقيل: أن السنن الإلهية هي: القوانين القائمة على علاقة السببية والاطراد،

وقيل: هي قوانين الله ﷻ التي أقام عليها بمشيئته النافذة،

وحكمته البالغة، نظام الكون والإنسان والمجتمع والحضارة، وهذه القوانين

---

[١] ينظر:دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، الوزير ، ص٢٥، ٣٢. اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، المطبعة العربية–غرداية – الجزائر، ط/١ ١٩٩٠ م، ص٨٥.

[٢] ينظر: أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد محمد كنعان، ص٥٢.

[٣] السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/٣ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م،ص١٢.

[٤] المرجع السابق، ص١٦.

[٥] المرجع السابق، ص٧.

[٦] تأملات في السنن الكونية، محمود زايد المصري، مجلة المسلم المعاصر،سنة/٢٠، العدد/ ٨٠، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص ٦٧.

تتصف بالعموم والثبات والاطراد [١] .

والسنن كما يعرفها عمارة بقوله : قوانين مخلوقة لله ﷻ أودعها وركّبها في ذات الطبيعة وظواهرها وقواها ، وسنن اللهﷻ هي (ما جرى به نظامه)[٢] .

وقيل: السنة هي قانون اللهﷻ الذي يسلم له الكون طوعا وكرها ويذعن له كل شيء وكل حي رضي أم لم يرض، من أكبر سيارة في السماء، إلى أصغر ذرة في الإنسان[٣].

قال ﷻ : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٤]

وقيل : السنن الكونية مجموعة القواعد والقوانين التي يسير وفقها الكون وتحكم حركة التاريخ والمجتمع صعودا وهبوطا [٥].

وقيل: السنن هي القانون الوجودي والكوني والتاريخي الذي يحكم عمران الإنسان واستخلافه[١].

---

[١] ينظر:النظرية العامة للشريعة الإسلامية، جمال الدين عطية، مطبعة المدينة، ط/١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٨م، ص١٦، مفهوم السنن الإلهية، حازم زكريا محي الدين ، ص.٣١.

[٢] معالم المنهج الإسلامي، محمد عمارة، دار الشروق–القاهرة، ط/١، ١٤١١هـ ـ١٩٩١م، ص٤٠.

[٣] منهج المعرفة في القرآن الكريم، يوسف كمال، دار القضاء ، المنصورة، مصر، ط/٢، ١٩٨٨م، ص٩١.

[٤] آل عمران: ٨٣.

[٥] السنن الكونية في تفسير ابن باديس، محمد دراجي، جريدة البصائر، الجزائر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣، العدد/ ١٣٥، ص٨.

ويقول محفوظ: السنن الكونية والاجتماعية هي **القوانين** التي أودعها الله ﷻ في الكون وفي حركة الإنسان والمجتمع، [٢] ، ويقول في موضع آخر: السنن مجموعة **القوانين** التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة .[٣]

اما زقزوق فيقول: السنن هي **القوانين** التي تحكم سري الكون وتضبط حركته. وهي قوانين لا تتبدل ولا تتخلف. هي القوانين الحاكمة للكون المادي والإنساني [٤].

وقيل :السنة الإلهية هي **القانون** الذي وضعه الله ﷻمنذ الأزل في اللوح المحفوظ وقبل أن يخلق البشر، لتنظيم حياة المجتمعات والأمم وسيرها بعلم اللهﷻ المطلق لما يصلح لسلوك البشر أيا كان هذا السلوك ،اما السنة الاجتماعية هي **الفعل والجزاء** معا وهما **جناحا القانون**، وهي **القانون** الذي ينص على أنه إن فعل كذا حصل كذا [٥].

---

[١] ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية، برغوث، ص١٧.

[٢] أوليات في فقه السنن، محمد محفوظ، مركز الراية للتنمية الفكرية، جدة، السعودية، ط/١ ،١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ١٢.

[٣] المرجع السابق، ص١٧.

[٤] السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم، محمود حمدي زقزوق، كتاب المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م، ص ١٣.

[٥] قصة الاختلاف: دراسة سننية،رندا عوني عبد القادر الجندي، دار العلوم للنشر والتوزيع–عمان ، ط/١، ٢٠٠٥، ص٢٢.

ثانياً : السنن بمعنى النواميس

يرى سيد قطب ان السنن : هي النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة اللهﷻ الطليقة .[١]

وقيل : السنن هي:النواميس التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها المقننة التي ليس إلى خروج عليها سبيل[٢].

وقال الخطيب: سنن الله في الحياة الإنسانية :نواميس الله في سير الحياة الإنسانية ونواميسه في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين وفق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله[٣] .

ويقال السنة هي الناموس الأزلي الذي وضعه اللهﷻللكون[٤] .

وقال بكار: السنن هي النواميس والطبائع والقوانين التي أجراها اللهﷻعلى مخلوقاته[٥].

وقيل السنن: سنن الله في الأرض هي الأصول التي تجري وفقها الأمور والنواميس التي تحكم الحياة والنظام الثابت الذي تتبعه الأحداث وهي جارية لا تتخلف[١].

---

[١] ينظر:في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (المتوفى ١٩٦٦م)، ،دار الشروق، القاهرة– مصر، ط/١، ١٩٧٢م،٤/ ٥٤٣.

[٢] ينظر: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، كتاب الأمة: ،٤مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص.٥٢.

[٣] ينظر:السنن الإلهية في الحياة الإنسانية واثر الايمان بها في العقيدة والسلوك ،د. الخطيب، ص٥.

[٤] ينظر:حديث الأحاديث، خشيم، ص ٤٢٠.

[٥] ينظر: هي هكذا، كيف نفهم الأشياء من حولنا،ص٨.

ثالثا: السنن بمعنى النظام

قال المراغي: السنن النظام الذي جرى عليه أمر الأمم[٢]، وقيل: السنن هي حركة الكون تسير وفق **نظام** دقيق تحكمه قواعد وقوانين تجري بحكمة ومشيئة إلهية عادلة. هذه القواعد تسمى سنن، [٣] ، وقيل السنن الإلهية هي **النظام** الإلهي العام، الذي يخضع له الخلق أفرادا وجماعات [٤].

وقال رمضان خميس زكي:السنن **النظام** الإلهي الذي يحكم سلوك البشر في انضباط واطراد[٥]

رابعاً : السنن ضوابط

يذكر محمد باقر الصدر تعريفا آخر مستعملا لفظ الضوابط، إذ يقول: (هي **الضوابط** التي وضعها الله ﷻ لتنظيم ظواهر الكون)[٦].

---

[١] ينظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٤/ ٥٤٣، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي، صائب عبد الحميد، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، ص٥٥٥.

[٢] ينظر : تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط/١، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ٤/ ٦١، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ٢/ ٣٣ .

[٣] ينظر:حركة التاريخ في القرآن، الكفيشي،ص.٢٢٤.

[٤] ينظر: خطاب الكلمة في القرآن، سمير سلمان، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص ٣٣، مفهوم السنن الإلهية، حازم زكريا محي الدين ، ص٢٩وما بعدها.

[٥] ينظر:مفهوم السنن الربانية، ص٢٥.

[٦] ا المدرسة القرآنية، ص٤٩.

وقيل السنن هي: مجموعة **الضوابط** لحركة الحياة وهي ذلك **القانون** الذي يحكم سير العقل البشري المنتزع من حركة عقل الإنسان في الطبيعة[١].

وقال **محمد** محفوظ: السنن هي **الضوابط** التي تمسك الكون في نظام ليكون كما أراد الله ﷻ[٢].

خامساً : السنن قواعد

قيل السنن: مفهوم شامل لكل **قاعدة أو منهاج** ملازم لأي كائن من الكائنات[٣].

السنن عند رشيد رضا **قواعد** ثابتة[٤] يقول محمد رشيد رضا (أَيْ إِنَّ أَمْرَ الْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنْ مُصَارَعَةِ الْحَقِّ لِلْبَاطِلِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْحَرْبِ وَالنِّزَالِ وَالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَدْ جَرَى عَلَى طُرُقٍ قَوِيمَةٍ وَقَوَاعِدَ ثَابِتَةٍ اقْتَضَاهَا النِّظَامُ الْعَامُّ)[٥] .

الفرع الثالث: السنن بوصفها الطريقة والمنهج والسيرة المتبعة :

أولا: السنن طرائق وطرق إلهية

يقول القرطبي السنن هي:طريقة اللهﷻ وعادته السالفة.[٦]

---

[١] ينظر: اقرآ وربك الأكرم، جودت سعيد، ص٩٠.

[٢] ينظر: أوليات في فقه السنن ، ص١٧.

[٣] أضواء قرآنية على ظواهر كونية، د. محمد سعيد مولاي، الشركة الجزائرية اللبنانية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط/١،١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م، ص٢١.

[٤] مفهوم السنن الإلهية، حازم زكريا محي الدين ، ص.١١٤.

[٥] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ٤/ ١١٥.

[٦] **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد**

والسنن عند المراغي:طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضتها الحكمة والمصلحة[١].

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ ليضمن للإنسان (السيد في هذا الكون) ما يحقق مصلحته، ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان[٢].

ممن عرف السنن بهذا المعنى الراغب الأصفهاني والفيروزآبادي : فالسُّنَنُ: جمع سُنَّةٍ، وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبيﷺ: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو: قولهﷻ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[٣] ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[٤] [٥] ، وقيل: السنن طريق عامة يجري بها أمره في عباده ، وهو الطريق المرعية في أفعال

البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط/٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ١٦/ ٢٨٠.

[١] **تفسير المراغي ، ٤/ ٧٦.**

[٢] تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم،(د. ط)، ١٩٩٧ م،٣/ ١٧٦٣.

[٣] الفتح: ٢٣.

[٤] فاطر:من الآية: ٤٣.

[٥] المفردات في غريب القرآن، ص ٤٢٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٣/ ٢٦٧.

الله تعالى، وهوطريق العدل والرحمة[١] ، وقيل: السنن هي شريعة الله وطريقته وما جرى من نظامه في خلقه[٢] .

وقيل : أن السنة هي الطريقة والمنهج والمسلك، وسنة اللهﷻ هي المنهج الإلهي في تسيير أمر حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى اللهﷻ وإلى الحق[٣] .

ويعرف طهماز السنة الكونية بأنها الطريقة المسلوكة العامة الشاملة في الكون، والمراد به جميع الكائنات التي أخرجها الله تعالى من العدم إلى الوجود [٤].

أما الدكتور عبد الكريم زيدان فيعرف السنن بـ :طريقة معاملة اللهﷻ لخلقه [٥]

[٥]ويورد د. زيدان تعريفا ثانيا للسنة عنده فيقول: (هي الطريقة المتبعة في

---

[١] مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: محمد أجمل أيوب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،ط/١ ،٢٠٠٢م، ص.٤٥، وينظر: سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، د. أحمد حسن فرحات، دار عمار–عمان–الأردن، ط/١ ،١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م، ص١٠.

[٢] معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل بن إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، ص١٥٤.

[٣] ينظر:موسوعة ألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، مصر، ط/١،١٩٨٨م، ص ١٤١وما بعدها، مفهوم السنن الإلهية، حازم زكريا محي الدين ، ص٢٧.

[٤] السنن الإلهية في الخلق، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط/١ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ص١٣.

[٥] السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات ، زيدان ،ص١٣.

معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة[١]

ثانياً : السنن نهج ومنهج

يرى الخطيب: السنة الإلهية منهج الله ﷻ في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة اللهﷻ في سير الحياة الإنسانية وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين، طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله[٢] .

يقول د. سمير سلمان مصطلح النهج في تعريفه للسنن : النهج والنظام الإلهي العام الذي يخضع له الخلق أفرادا وجماعات[٣] ، وقيل: السنن هي الأساليب التي يستخدمها الله تعالى في إدارة وتدبير أمور العالم والإنسان[٤].

ان السنن كأساليب لسير أمور العالم، مما يجعلها قوة في أيدينا، وأسلحة في تغيير النفس والواقع الذي نعيشه [٥]ومنهجا قويما يرشدنا إلى تسخير هذه

---

[١] السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات ، زيدان ،ص١٣.

[٢] السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، ص٢٧،٥، ٧٦ وينظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب،٤/ ٢٣٧٩، ٥/ ٣٢١٦، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، عرجون،ص٣٩.

[٣] خطاب الكلمة في القرآن ، د. سمير سلمان، معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي،ايران ،ط/١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ص ٣٣، وينظر: مفهوم السنن الإلهية، حازم زكريا محي الدين ، ص٢٩.

[٤] النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، محمد تقي مصباح اليزدي، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الروضة، بيروت، لبنان،١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص ٤١٣.

[٥] معالم المنهج الإسلامي ، د. محمد عمارة، دار الشروق، مصر ، القاهرة، ط/١، ١٩٩١م، ص٥٠.

القوى في تحقيق الاستخلاف.[١]

وهذا ما يعطي للسنن وظيفة توجيهية وترشيدية للإنسان على مستوى الرؤية، ومنهج النظر في الكون والتاريخ والاستخلاف ، كما يضفي عليها بعدا تربويا مهما يتم بموجبه تربية الإنسان على منهج الله ﷻ، وتربيته على الالتزام بهذا المنهج، واتباعه في الفهم والفعل، حتى تستقيم أموره وأقواله وأفعاله مع مراد الله ﷻ، وتتحقق فيه السننية.[٢]

الفرع الرابع: السنن بوصفها العادة والمثال :

السنن بهذا الاعتبار عادة اللهﷻ في معاملة الأقوام، في نصر المؤمنين ومحق الكافرين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مثل قوله: "فهذه سنة الله **وعادته** في نصر عباده المؤمنين على الكافرين..... [٣].

ويترتب على هذا قضية الاعتبار والاطراد والقياس في السنن[٤] فكون السنن عادات معلومة فهذا يعني أنها صارت جزء من ثقافة الأمم السائدة ومحورا

---

[١] ينظر: ملاحظات حول دراسة السنن، برغوث، ص٣٨.

[٢] ينظر : القوانين القرآنية للحضارات، دراسة قرآنية لأحداث التاريخ، خالد فائق العبيدي، ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص ٩٠وما بعدها، الدين والقانون رؤية قرآنية، جودت سعيد، دار الفكر، دمشق، سورية،ط/١ ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص٤٦

[٣] ينظر: الرد على المنطقيين، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان،(د.ط،د.ت)، ص.٣٩٠ وما بعدها.

[٤] مجموع الفتاوى، ابن تيمية،٤٢٥/٢٨، وينظر: ملاحظات حول دراسة السنن، برغوث ، ص٣٩.

أساسيا في تراثها وتاريخها وأحوالها وأفعالها[١] وهذا من رحمته سبحانه بالأمم[٢]، فبفضل الله ﷻ أصبحت السنن الإلهية مصدرا مهما للوعي والاعتبار والتربية والتسخير والقوة[٣] ، مما يشكل دعما للبشر ومساعدا لهم في الاتقاء عن الوقوع في الخطأ مرة أخرى[٤] .

ومن هنا ترتبط السنن بجانبها البشري والتاريخ أكثر، إذ تتجسد السنن عبر تكرر التجارب والأمثلة البشرية في التعامل معها، وتحولها إلى ممارسات معتادة مألوفة، لتتغلغل داخل الكيان البشري وتصنع طبائعه وخصائصه. ومن هنا جاءت السنن بمعنى العادات والطبائع والمثال[٥].

اولاً : السنن بمعنى العادات:

السنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية (لعادة التي تتضمن أن يفصل في الثاني فعل ما فعل بنظيره الأول...وهي العادة في الأشياء المتماثلة)[٦].

---

[١] ينظر: ملاحظات حول دراسة السنن، برغوث ، ص٤٠.

[٢] ينظر: دروس من القرآن، محمد بن عبده بن حسن خير الله (المتوفى : ١٣٢٣هـ) ، دار احياء العلوم، بيروت، ط/١، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م، ص١٩٠.

[٣] ينظر: ملاحظات حول دراسة السنن، برغوث ، ص٤٠.

[٤] بنظر: حتى يغيروا ، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص ١٢٨ ملاحظات حول دراسة السنن، برغوث ، ص٤٠.

[٥] السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث،عمر حيدوسي، جامعة الحاج لخضر باتنة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، (اطروحة دكتوراه) ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ص١٨١.

[٦] ينظر :مجموع الفتاوى،١٣/٢٠.

يعرف ابن القيم السنن، فيقول فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه .[١]

كذلك ابن عاشور استعمل لفظ العادة ،فقال في تعريف السنة هِيَ عَادَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ، وبقية كلامه تخصيص للسنة بالسنن الاجتماعية: "وهي أحوال الأمم الجارية على طريقة واحدة [٢].

ثانياً: السنن بمعنى الطبائع:

السنن عند الدكتور عبد الكريم بكار هي الطبائع التي أجراها الله على مخلوقاته فيقول: أن طبائع الشيء وخصائصه حين تتجلي في سياقات وظروف متكررة، فإن تجلياتها تسمى سنة أو قانونا أو ناموسا .أما في المجال النفسي والاجتماعي والحضاري وكل ما له صلة بالإنسان بوجه من الوجوه فإن سنن الله ﷻ فيه عبارة عن أحكام علوية ماضية مستمرة اقتضتها مشيئة اللهﷻ وحكمته البالغة [٣]، وقال الكفيشي : أن السنن قضايا

---

[١] ينظر:شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان،(د.ط) ، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ١٩٩.

[٢] ينظر:التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ،٤/ ٩٧.

[٣] هي هكذا كيف نفهم الأشياء من حولنا،ص٨.

عقلية منتزعة من **تجارب** الأمم التاريخية، وليست وجودات خارجية مستقلة [١] فتحول السنن لعادات وطبائع وخصائص للأمم يثير وهما بأن السنن هي نفسها تلك الحوادث والتجارب التاريخية، والحقيقة أنها ليست سوى تجليات للسنن، التي هي في الأصل قضايا عقلية ينتزعها العقل من تجارب الأمم، وليست التجارب نفسها[٢].

وأن الاستعمال العرفي للسنن لا يخرج عن هذا البعد الثقافي الاعتباري، فكثيرا ما يتردد على لسان العامة قولهم: (هذه سنة الحياة) بمعنى المعتاد المألوف فيها[٣].

ثالثاً: السنن بمعنى المثال

يعرف الطبري السنة بأنها : مثال فعل الله ﷻبالسابقين[٤] و فيه التركيز على معنى العاقبة ومآلات الأمم في تعاملها مع السنن، بل ويكاد المعنى يوحي بالتعامل السلبي –دون الإيجابي– مما يجعل العاقبة (عقوبات على

---

[١] حركة التاريخ في القرآن الكريم، عامر الكفيشي، دار الهدى للطباعة والنشر والوزيع، بيروت، ط/١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٢٣١.

[٢] السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث،عمر حيدوسي،ص١٨٤.

[٣] ينظر: أضواء قرآنية على ظواهر كونية، د. محمد سعيد مولاي، ص٢٧.

[٤] ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ١٠/٣٠٤ وما بعدها.

المخالفات)، وفي هذا دعوة للاعتبار والتوقي بلا شك، لكن فيه أيضا إغفالا للجانب الإيجابي في التفاعل مع السنن، ليكون محل تأس واقتداء.[١]

ويقول الدامغاني : أنّ كلمة مثل استخدمت في القرآن الكريم بمعنى سنّة[٢] ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾[٣] ،وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي سنتهم[٤]، ومِثْله قوله تعالى :﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [٥] ، قال أهل التأويل:﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، سنتهم في العقوبة[٦]

المطلب الثاني: السنن الإلهية في السياق القرآني:

---

[١] السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث،عمر حيدوسي، ص١٨٢.

[٢] قاموس القرآن (إصلاح الوجوه والنظائر)،الحسين بن محمد الدامغاني، (المتوفى: ٥٧٩ هـ) تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين – بيروت، ط/٣، ١٩٨٠م،ص٤٢١.

[٣] البقرة: من الآية: ٢١٤.

[٤] تفسير القرآن العظيم ، ١/ ٤٢٧.

[٥] الزخرف: ٨.

[٦] ينظر:الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ،تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م، ٤/ ٦٤، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن

تكرر لفظ سنن وسنة في القرآن ستة عشر مرة في إحدى عشر آية من عشر سور ، فمرة تكون مفردة، ومرة جمعا، وأخرى مضافًا، إما إلى الله تعالى، أو إلى الرسل الكرام عليهم السلام، فقد تكرر ذكر السنة ثلاث مرات في آية واحدة من سورة فاطر، وثلاث مرات في آيتين من سورة الأحزاب.

كما وردت بخمس صيغ: سنة الله ثماني مرات، سنتنا مرة، سنة من قد أرسلنا مرة، سنة الأولين أربع مرات، سنن مرتان.

ووصفت السنة ثلاث مرات بعدم التبديل، ومرتان بعدم التحويل، وقد وردت الصفتان معا في الآية ٤٣من سورة فاطر[١] ، اما موارد لفظة سنة أو سنن، مرتبة حسب ترتيب سورها في المصحف الشريف، قال ﷻ :

١. ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢].

٢. ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣] .

٣. ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[١] .

بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤٢٢ هـ،٥/ ٤٦.

[١] ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي(المتوفي: ١٣٨٨ هـ)، دار الفكر،–بيروت–لبنان، (د.ط) ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م، ص٣٦٧.

[٢] آل عمران: ١٣٧.

[٣] النساء: ٢٦.

٤. ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [٢] .

٥. ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [٣] .

٦. ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [٤] .

٧. ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [٥] .

٨. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [٦]

٩. ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [٧].

١٠. ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [٨].

١١. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [١].

---

[١] الأنفال: ٣٨.

[٢] الحجر: ١٣.

[٣] الإسراء: ٧٧.

[٤] الكهف: ٥٥.

[٥] الأحزاب: ٣٨.

[٦] الأحزاب: ٦٢.

[٧] فاطر: ٤٣.

[٨] غافر: ٨٥.

يمكن أن نفرز استعمال (السُنّة) ومشتقّاتها في الكتاب الكريم الى أربعة مجاميع:

المجموعة الأولى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾

قال ﷻ :﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾[٢]،و﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ ﴾[٣]. و﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ﴾[٤].﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[٥]، و﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[٦].

يلاحظ إن (السُنّة) أُضيفَتْ في هذه المجموعة من الآيات إلى الله ﷻ، فحينئذٍ لا يعقل أن تكون طريقةً قبيحة. لكنّني بصدد العثور على استعمالٍ تكون (السُنّة) فيها من المصاديق السيّئة والقبيحة للطريقة، حتّى يتّضح عموميّة معنى الكلمة. فإذن لا يمكن الاستدلال بهذه المجموعة على المعنى العامّ،

---

[١] الفتح: ٢٣.

[٢] فاطر: من الآية: ٤٣.

[٣] غافر: من الآية: ٨٥.

[٤] الأحزاب: من الآية: ٣٨.

[٥] الأحزاب: ٦٢.

[٦] الفتح: ٢٣.

وهناك آيةٌ أخرى أيضاً: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾[1] ، وهي ملحقةٌ بآيات هذه المجموعة، والقول فيها مثل ما تقدَّم.

المجموعة الثانية: ﴿ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

قال ﷻ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[2] ، ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[3] ، ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[4] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴾[5].

يمكن الاستشهاد بهذه المجموعة بتقريب أن «السُّنّة» هنا طريقة الأشرار التي يحذِّر الله منها، فهي طريقةٌ سيئة، لكنْ يحتمل جدّاً أن لا تكون ﴿ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾إضافة إلى الفاعل، بل رُبَما معناها سنّة الله في عذاب الأوّلين، كما هو فَهْمُ كثيرٍ من العلماء من رواية: (سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ)[6] ، يعني أنها ليست ليست سُنّةً لأهل الكتاب أنفسهم، بل هي سُنّة الإسلام فيهم، يعني أخذ الجِزْية

---

[1] الإسراء: ٧٧.

[2] الأنفال: ٣٨.

[3] الحجر: ١٣.

[4] فاطر: ٤٣.

[5] الكهف: ٥٥.

[6] سبق تخريجه.

في رؤيتهم. ويؤيّده أن فريقاً من المفسِرين أيضاً فسّروا (السُّنّة) في هذه الآيات بالعذاب، فالسُّنّة في هذه المجموعة طريقةُ الله فيهم، فلا تعقل أن تكون طريقةً سيئة، كما تقدَّم.

لكنْ يُشْكَل على هذا التفسير أن الآية الأخيرة ظاهرةٌ في أن (السُّنّة) بالمعنى السلبيّ؛ بقرينة مقابلة ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾مع (العذاب)، فالسنّة شيءٌ غير العذاب، وكأنّ الآية تقول: (أن يُكذِّبوا مثل طريقة الأوّلين أو يأتيهم العذاب).

هذا، لكنْ يبدو أنها في هذه الآية بمعنى نوعٍ من العذاب؛ بقرينة اقتران ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ بـ ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾،لأن (الإتيان) ينسجم مع (العذاب)، لا (التكذيب). فرُبَما تكون ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾بمعنى العذاب الدنيوي، ﴿ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[1] يعنى عذاب الآخرة[2] ، وهناك احتمالٌ آخر أيضاً: ربما كانت سنّة الله في تعذيب الأوّلين هي مفاجأتهم، ولفظ ﴿قُبُلًا﴾ في الآية بمعنى (عيانا)[3] ، في مقابل الخفاء والغفلة، فإذن ينسجم مع المقابلة بين ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾و(ٱلْعَذَابُ) أيضاً، يعني: (إلاّ أن يأتيهم العذاب فجأةً، كما هو سنّة الله في عذاب الأوّلين، أو يأتيهم العذاب عياناً وبدون أيّ مفاجأة). وهذا مجرّدُ احتمالٍ أرَدْتُ ذكر احتمال المعنى الإيجابيّ للسُّنّة.

---

[1] الكهف: من الآية:٥٥.

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط/٣، ١٤٠٧ هـ، ٢/ ٧٢٩.

[3] المصدر السابق نفسه.

ويحتمل أيضاً أنهم أرادوا من تفسيرهم (السُّنّة) بالعذاب أن نتيجة طريقة الأوّلين هي العذاب، لا أن نفس ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾بمعنى العذاب. وعليه لا ينافي أن تكون الكلمة بالمعنى العامّ في رؤيتهم؛ لأن العذاب نتيجة سنّة الأوّلين، لا نفسها. وبعبارةٍ أخرى: رُبَما لم يكن تفسيرهم للسُّنّة في الآية تفسيراً لُغَويّاً، بل يحتمل أنهم حينما قالوا بأن سنّة الأوّلين بمعنى عذابهم إنما أرادوا أن العذاب نتيجة طريقة الأوّلين في تكذيب الأنبياء. وعليه رُبَما كانت السنّة هنا من مصاديق الطريقة السيّئة عندهم، وبالتالي يُحْتَمَل أنهم قائلون بالمعنى العامّ للكلمة.

لكنْ على أيّ حالٍ إنْ لم تكن (السُّنّة) في هذه الآيات بمعنى العذاب وطريقة الله فيهم . وهي من المصاديق الحَسَنة للطريقة . فاحتماله كبيرٌ جدّاً، ومجرّد الاحتمال كافٍ لعدم صحّة الاستدلال بهذه المجموعة من الآيات الكريمة.

المجموعة الثالثة ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾

قال ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [1]، يحتمل أن تكون (السُّنَن) في الآية بمعنى مطلق طريقة الأمم الماضية من الكفّار والمؤمنين، وأن تكون ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ بمعنى تبيين طرائقهم؛ لتعتبروا وتقتدوا بسيرة المؤمنين منهم، لا الكفّار. وعليه يمكن الاستشهاد بالآية على المعنى العامّ للكلمة.

لكنْ يُحْتَمَل أيضاً أن يكون المراد من (السُّنَن) هنا هو الشرائع والأديان الإلهيّة السابقة، فالسُّنّة حينئذٍ من مصاديق الطريقة الحَسَنة، ولا يمكن الاستدلال

---

[1] النساء: ٢٦.

بالآية. ويؤيّده أن كثيراً من المفسِرين أيضاً استظهروا هذا المعنى[١] وغيرهم. ، وإنْ كان المعنى الأوّل أيضا مذكوراً في كتب بعض المفسِرين، وقد عَبَّروا عنه بـ (القيل)، أو نقلوه عن الآخرين[٢] .

المجموعة الرابعة: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ ﴾

قال تعالى: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[٣].

---

[١] ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، ط/١، ١٤٢٣ هـ ، ٣٦٨/١، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن٢٢/ ١٣٢، أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط/١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ٣/ ١٢٦، ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري ، ١/ ٥٠١، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/١، ١٤١٨ هـ،٧٠/٢، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢٣٤/٢،

[٢] ينظر: أحكام القرآن، الجصاص ، ٢/ ٢١٤، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) تحقيق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/٤، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، ٢/ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي ،٥/ ١٤٨.

[٣] آل عمران: ١٣٧.

يمكن أن يستظهر المعنى السلبيّ من السياق، خصوصاً مع ذكر «﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في ذيل الآية. وكأنّ المعنى: قد مضَتْ طريقة الكفّار وأهل العذاب قبلكم، فانظروا عاقبتهم واعتبروا.

لكنْ مع الالتفات إلى مجموعة آيات ﴿سُنَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾،التي تقدَّمَتْ، يبين أن سياق هذه الآية يضاهي سياق تلك المجموعة، وحيث تقدَّم أن (السُّنّة) في تلك المجموعة يُحْتَمَل أن تكون بمعنى سنّة الله بالعذاب فيُحْتَمَل هنا أيضاً أن يكون المراد بـ (السُّنَن) هو (طرائق الله في المكذِّبين)، لا نفس طريقة المكذّبين. ومع هذا الاحتمال لايثبت أن تكون (السُّنّة) هنا من المصاديق السيّئة للطريقة.

ويؤيّده أن الآية شبيهةٌ بسياق آيةِ ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [1].. ، وقد تقدَّم أن (السُّنّة) في تلك المجموعة أيضاً لا يمكن أن تكون من المصاديق القبيحة للطريقة. نعم، مجرد الشباهة ليس دليلاً، كما هو واضحٌ، لكنّه يكفي هنا لطرح الاحتمال الواقعيّ، ومجرّد هذا الاحتمال يكفي في هَدْر الاستدلال، كما تقدَّم غير مرّةٍ.

ويلاحظ أن الله ﷻ قد أسند السنة (لذاته، وللرسل) مع أنّها خاصة به سبحانه، ولا تعارض في ذلك، بل هو من باب التلوين والتنويع في الخطاب، فسنة اللهﷻ هي سنة رسله.

قال الشوكاني عند تفسير قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾[2] قِيلَ الْمَعْنَى: سُنَّتُنَا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا[1] ويمكن أن تكون أضيفت إلى

---

[1] غافر: من الآية: ٨٥.

[2] الإسراء: من الآية:٧٧ .

الرسل لأنها سنّت لأجلهم، ويدل على ذلك قوله سبحانه﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ﴾[٢] ، أي سَنَّ الله تعالَى سُنةً وهي أن يُهلك كلَّ أمة أَخرجت رسولهم من بين أظهرِهم فالسنةُ لله تعالى وإضافتُها إلى الرسل لأنها سُنّتْ لأجلهم على ما ينطِق به قولُه ﷻ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ﴾ أي تغييرا [٣]

وأضيفت السنة إلى الأولين في قوله ﷻ: ﴿ سُنَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ لِأَنَّهَا سُنَّةٌ سُنَّتْ بِهِمْ [٤] وَأَضَافَهَا إلى نفسه بعدها بقوله ﷻ: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [٥] ، فسنة الله هي إهلاك واستئصال الكافرين لأنهم كذبوا الرسل، وهذه لسنة تنطبق على كل من شابههم، وسلك طريقهم[٦].

---

[١] فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط/١، ١٤١٤ هـ، ٣/ ٢٩٤.

[٢] الإسراء: من الآية:٧٧ .

[٣] تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٥/ ١٨٩، وينظر:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ، ٨/ ٩٤

[٤] مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٢٦/ ٢٤٧.

[٥] فاطر: من الآية: ٤٣.

[٦] ينظر: مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٢٦/ ٢٤٧.

وقال الألوسي: أضيفت السنة إلى الأولين لما بين المخاطب والأولين من الملابسة الظاهرة والتشابه[١] .

المطلب الثالث: السنن الإلهية في السنة النبوية المطهرة

(السنن الإلهية) هي الطرق أو القواعد أو القوانين المنسوبة إلى الله تعالى فيما يخص معاملته سبحانه لعباده، وعلى نحو ثابت مطَّرد؛ إنْ ثوابًا لهم على الطاعة والاستقامة، أو عقابًا على المعصية والانحراف[٢]، وقد اهتم القرآن الكريم بتناول السنن الإلهية، والتنبيه إليها، وفصَّل القول في بعضها؛ وجاءت السنة النبوية أيضًا، القولية والعملية، لتتناول السنن الإلهية، ولتنبِّه إليها، وتفصِّل بعضها؛ وذلك حثًّا للعقل المسلم على التدبر والتفكر في مراد الله ﷻ من الناس، خَلقًا وتوجيهًا وتشريعًا وتأديبًا؛ فإن الإنسان لم يُخلَق عبثًا، ولن يُترك سُدى، ولا يَمضِي على غير هُدى؛ وإنما الإنسان قد وُضِع له منهج، ورُضِيَ له دين، ورُصِدَ له طريق؛ فمن اهتدى واتبع فلنفسه، ومن تنكب وخاب فعليها: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠

---

[١] ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١١/ ٣٧٨.

[٢] ينظر : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، د. عبد الكريم زيدان، ص ١٣، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، إبراهيم بن علي الوزير، ص ٧. أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د. أحمد محمد كنعان، ص٥٢، السنن الالهية في الامم والافراد في القران الكريم،:د. مجدي محمد عاشور، تحقيق : مصطفى الشكعة، دار السلام–القاهرة، ط/٢، ٢٠٠٧م ، ص ٣٦.

عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ [1]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾[2] ، ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[3] ، ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [4] .

وفي سيرة الرسولﷺ كلاما وعملا (وهي الجانب التفصيلي للقرآن الكريم) فقد كان ﷺ يحسن التعامل مع سنن اللهﷻ في كونه وقوانينه في عباده.

لذا يمكن ان نقسم السنن الإلهية في السنة النبوية الى:

أولاً: السنن الإلهية في السنة النبوية القولية:

ورد لفظ (السنة) في السنة النبوية القولية في عدة مواضع، وبعدة دلالات، منها:

١. ورود لفظ (السنة) في السنة النبوية القولية مضافًا إلى الحسنة والسيئة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[5]

---

[1] الأنعام: ١٠٤.

[2] الزمر: ٤١.

[3] فصلت: ٤٦.

[4] الجاثية: ١٥ .

[5] سبق تخريجه.

ففي هذا الحديث ورد لفظ السنة دالاً على مجرد الطريق، وليس ممدوحًا لذاته، وإنما أخذ حكمه مما أضيف إليه، فإذا كان الطريق حسنًا كانت السنة حسنة، وإذا كان الطريق سيئًا كانت السنة سيئة.

٢. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ)، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ)[١]

فهذا الحديث قد وردت فيه ما يكون في سنن التراجع والانهزامية– أي قانون التراجع الحضاري– من التقليد والاتباع الأعمى، والانسياق خلف كل ناعق.

٣. عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ

---

[١] الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺوسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (المتوفى: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط/١، ١٤٢٢هـ، كِتَابُ الِاعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)، برقم(٧٣٢٠) ٩/ ١٠٣، ومسلم ، كتاب الْعِلْمِ، بَابُ اتِّبَاعِ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، برقم(٢٦٦٩)٤/ ٢٠٥٤.

إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[1]

ففي هذا الحديث بيان لسنة الوسطية، التي هي قانون عام يطبع الأمة بطابعه في جميع تصرفاتها. ومن يخرج عن هذه السنة أو القانون، يمينًا أو يسارًا، إفراطًا أو تفريطًا، يخرج عن الصراط المستقيم الذي رضيه الله تعالى لعباده.

ثانيًا: السنن الإلهية في السنة النبوية العملية:

إذا كانت السنة النبوية تشمل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته؛ فإنه أفعاله ﷺ كانت نابعة ومتسقة مع السنن الإلهية، وجاءت تطبيقًا عمليًّا لها.

ويلاحظ ذلك في عدة أمور، منها:

١. سنة الجزاء وعدم المحاباة:

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] ، قَالَ: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ،

---

[1] صحيح البخاري، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي النِّكَاحِ ،برقم(٥٠٦٣) ٢/٧ ، ومسلم بلفظ: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺعَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ، وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ، برقم(١٤٠١)٢/ ١٠٢٠.

لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)[٢]

فهذا موقف عملي من النبي ﷺ يبيّن سنة الجزاء وعدم المحاباة، حتى مع أقرب الناس إليه ﷺ؛ فمن يعمل خيرا جُزي خيرًا، ومن يعمل سوءًا جُزي به.

٢. سنة السَّببية:

عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ ،عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قال: (اعقلها وتوكل)[٣] .

---

[١] الشعراء: ٢١٤.

[٢] صحيح البخاري، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ومن الآية: – ٢١٥ أَلِنْ جَانِبَكَ برقم(٤٧٧١)٦/ ١١١ ، ومسلم، بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺحِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا) ، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، برقم(٢٠٦) ١/ ١٩٢.

[٣] الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه:

فالأخذ بالأسباب واجب، ولا ينافي التوكلَ؛ كما أن التوكل واجب ولا يعني تركَ السبب.. فالتوكل عمل القلب، والأخذ بالأسباب عمل الجوارح؛ ولا منافة بين العملين.

٣. سنة النجاة:

عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: (مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا)[١]

فسنة النجاة، كما يبينها الحديث الشريف، تستلزم التعاونَ على فعل الخير، والتكاتفَ على منع الأذى، وعدمَ السماح لمن يسلك سبيل الفساد أو الجهل، بالمُضِيّ فيما نتيجته الهلاك المحتم، ففي هذا تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤. سنة النصر والهزيمة:

شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، كتاب الرقائق، بَابُ الْوَرَعِ وَالتَّوَكُّلِ (ذِكْرُ الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْمَرْءَ يَجِبُ عَلَيْهِ مَعَ تَوَكُّلِ الْقَلْبِ الِاحْتِرَازِ بِالْأَعْضَاءِ ضِدَّ قَوْلِ مَنْ كَرِهَهُ)، برقم(٧٣١)٢/ ٥١٠.

[١] صحيح البخاري، كِتَاب الشَّرِكَةِ، بَابٌ: هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، برقم(٢٤٩٣)٣/ ١٣٩.

عَنْ البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺعَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: (إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ)، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺغَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺوَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟)، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: (قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ)[١]

---

[١] صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلاَفِ فِي

ففي غزوة أحد، حينما خالف الرماةُ أمر النبي ﷺ بعدم ترك الجبل، مهما حدث في المعركة؛ فجلبوا الهزيمة للمسلمين في الغزوة. فهنا سرت سنة النصر والهزيمة، أو قانون النصر والهزيمة، على من أخذ بالأسباب، ودون محاباة.

٥. سنة الاختلاف الديني:

فحينما هاجر النبي ﷺ كتب (وثيقة المدينة) لتنظيم العلاقة بين سكان المدينة من المسلمين وغيرهم؛ وفي هذه الوثيقة ضمان للاختلاف الديني، الذي هو سنة من سنن الله تعالى في الخَلق؛ حيث جاء فيها: (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم)[١].

فكانت (وثيقة المدينة) عملاً فريدًا في إقرار سنة الاختلاف الديني، وضمان عدم الإجحاف بها. وهذا أيضًا مصداق لما جاء في القرآن الكريم من تقرير هذه السنة، بمثل قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٢]

ومما تقدم تتضح عناية السنة النبوية، قولاً وعملاً، بالسنن الإلهية؛ لِمَا لهذه السنن من دور فاعل أساس في فهم المسلمين لدينهم من ناحية، وفي حياتهم بدينهم من ناحية أخرى.. ولهذا جاءت السنة القولية متعاضدةً مع السنة العملية في بيان ذلك تأصيلاً وتطبيقًا؛ بحيث يكون المسلم على بصيرة من أمره، ويتحرك في الحياة بخطوات راشدة.

الحَرْبِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ، برقم(٣٠٣٩)٤/ ٦٥.

[١] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة،محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، دار النفائس – بيروت، ط/٦، ١٤٠٧هـ ،ص ٦١.

[٢] يونس: ٩٩.

فما من معركة إلا والرسولﷺ يتعامل مع الأسباب؛ يجعل مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائدا، ثم يقبل على الله ﷻ ملحا في دعائه مبتهلا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سنن النصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية، وهذا الأخذ بالأسباب في حد ذاته سنة من سنن الله ﷻ في الكون.

وفي مجال التربية: حين يربي الرسولﷺ أصحابه على قيمة من القيم تلمح استصحاب هذا الإدراك القوي للسنن التي بثها الله تعالى في خلقه، فحديثه عن اتباع سنن من قبلنا من الوضوح بمكان، وإرشادهﷺ لمن يستجديه من الناس إلى سنة اللهﷻ في الرزق واضحة عندما يأمره بأن يذهب فيشتري قدوما ، عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبيَّ ﷺ يسأله، فقال: (أما في بيتك شيء؟) قال: بلى، حِلْسٌ: نَلْبَسُ بعضَه ونَبْسُطُ بعضَه، وقَعْبٌ نشربُ فيه من الماء، قال: (ائتني بهما)، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسولُ الله ﷺ بيده، وقال: (من يشتري هذين؟) قال رجل: (أنا آخذهما بدرهم)، قال: (مَنْ يزيدُ على درهم؟) مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: (أنا آخذُهما بدرهمين)، فأعطاهما إياه، وأخذَ الدرهمين،

فأعطاهما الأنصاريَّ، وقال: (اشترِ بأحدهما طعاماً، فانبِذْه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قَدوماً فأتني به) فأتاه به، فشدَّ فيه رسولُ الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: (اذهبْ فاحتَطِبْ وبع، ولا أرَيَنَّك خمسةَ عشرَ يوماً) فذهب الرجلُ يَحْتَطِب ويبيع، فجاء، وقد أصابَ عشرةَ دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسولُ الله ﷺ (هذا خيرٌ لك من أن

تجيءَ المسألةُ نكتةً في وجهك يومَ القيامة، إن المسألة لا تَصلُحُ إلا لثلاثة: لذي فَقْرٍ مُدْقع، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أو لذي دَمٍ مُوجِع[١]

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[٢] ، و عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: (المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[٣].

ولقد حرص الرسولﷺ على تعلم أصحابه وأمته إدراك السنن الإلهية عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ (يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ) فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ وَعَلَّمْنَاهُ أَبْنَاءَنَا؟ فقال (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ لَبِيدٍ إِنْ كُنْتُ لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التَّوْرَاةُ.

---

[١] سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، برقم(١٦٤١)٣/ ٨١ وما بعدها.

[٢] صحيح مسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، برقم(٢٥٨٦)٤/ ١٩٩٩.

[٣] صحيح البخاري، كِتَاب المَظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابُ نَصْرِ المَظْلُومِ، برقم(٢٤٤٦)٣/ ١٢٩، ومسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، برقم(٢٥٨٥) ٤/ ١٩٩٩، بدون ذكر(وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ).

وَالْإِنْجِيلُ بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ حِينَ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1] [2].

فليس المراد من قوله ﷺ: وذلك عند ذهاب العلم ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السنن.

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد الرسولﷺ لأصحابه إلى أمر السنن التي تعم الجميع وتمضي بلا استثناء.

أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي امْتَازَ بِهِ عُظَمَاءُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فلما مات عمر ﷺ قال ابن مسعود مات تسعة أعشار العلم فقيل له أتقول ذلك

---

[1] المائدة: ٦٦.

[2] ينظر: تفسير القرآن العظيم ، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط/٣، ١٤١٩ هـ، ٤/ ١١٧٠،تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٣/ ١٣٥، الأساس في التفسير، سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)، دار السلام – القاهرة، ط/٦، ١٤٢٤ هـ، ٣/ ١٤٣٩، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي(المتوفى: ١٤٤١هـ) ، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م،٧/ ٣٩٢ وما بعدها،

وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والاحكام إنما أريد العلم بالله تعالى[1]

وفي علم الصحابة بعلم السنن الإلهية يقول صاحب المنار:(وَإِنَّنِي لَا أَشُكُّ فِي كَوْنِ الصَّحَابَةِ كَانُوا مُهْتَدِينَ بِهَذِهِ السُّنَنِ وَعَالِمِينَ بِمُرَادِ اللهِ مِنْ ذِكْرِهَا. يَعْنِي أَنَّهُمْ بِمَا لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمْ وَمِنَ التَّجَارِبِ وَالْأَخْبَارِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا وَبِمَا مُنِحُوا مِنَ الذَّكَاءِ وَالْحِذْقِ وَقُوَّةِ الِاسْتِنْبَاطِ كَانُوا يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ مِنْ سُنَنِ اللهِ – تَعَالَى – وَيَهْتَدُونَ بِهَا فِي حُرُوبِهِمْ وَفُتُوحَاتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ لِلْأُمَمِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا ؛ لِذَلِكَ قَالَ: وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْعَمَلِ أَنْفَعُ مِنَ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ الْمَحْضِ وَكَذَلِكَ كَانَتْ عُلُومُهُمْ كُلُّهَا، وَلَمَّا اخْتَلَفَتْ حَالَةُ الْعَصْرِ اخْتِلَافًا احْتَاجَتْ مَعَهُ الْأُمَّةُ إِلَى

---

[1] ينظر الأثر في: المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط/٢(د.ت) ،،برقم(٨٨١٠)٩/ ١٦٣، إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة ، بيروت، (د. ط، د.ت) ،١/ ٢٣، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، دمشق – سوريا، ط/١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م،٢/ ١٤٢، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا ، ٧/ ٤١٦، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، سنة وفاة محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي(المتوفى: ١٤٤٢ هـ)، دار ابن الجوزي، ط/١، ١٤٣٦ هـ ، كِتَابُ الآدَابِ، ٣٥ / ٤١٢.

تَدْوِينِ عِلْمِ الْأَحْكَامِ وَعِلْمِ الْعَقَائِدِ وَغَيْرِهِمَا كَانَتْ مُحْتَاجَةً أَيْضًا إِلَى تَدْوِينِ هَذَا الْعِلْمِ، وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ عِلْمَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ أَوْ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ.سَمِّ بِمَا شِئْتَ فَلَا حَرَجَ فِي التَّسْمِيَةِ)[١] .

وهكذا يتضح علم الصحابة الكرام بهذا العلم الذي هو من أدق أنواع العلوم وأولاها بالحرص والانتفاع، والذي ما فقد المسلمون توازنهم بحق إلا بعد أن فقدوا الاستفادة منه.

المبحث الثاني
السنن الإلهية خصائصها أنواعها

المطلب الأول: خصائص السنن الإلهية

الخصائص :جمع خصيصة ، والخصيصة هي :الصفة التي تميز الشيء وتحدده ، واختص بالشيء أي :انفرد به ، [٢] وخِصِّيصَى وخصّصَه واخْتصّه: أَفْرَدَه بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ لَهُ إِذا انْفَرَدَ، وخَصّ غيرَه واخْتصّه بِبِرِّه. وَيُقَالُ: فُلَانٌ مُخِصٌّ بِفُلَانٍ أَي خَاصٌّ بِهِ وَلَهُ بِهِ خِصِّيّة[٣].

---

[١] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا،٤/ ١١٥.

[٢] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة(د.ط، د.ت) ١/ ٢٣٨.

[٣] لسان العرب، ابن منظور ،٧/ ٢٤.

إن السنن الإلهية بمثابة القوانين العامة التي تحكم أفعال البشر وسلوكهم فهي تتسم بالثبات والاطراد والعموم .

ومن أهم تلك الخصائص التي دلّت عليها النصوص:

١. أنها من عند الله تعالى، فقد نسبها الله ﷻ إلى نفسه وَأَضَافَهَا إلى نفسه بقوله ﷻ: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [١] ، يقول الرازي: فسنة الله هي إهلاك واستئصال الكافرين لأنهم كذبوا الرسل، وهذه لسنة تنطبق على كل من شابههم، وسلك طريقهم[٢].

يضفي وصف الالهية على السنن دلالات ومقتضيات محورية في تأسيس الرؤيا للسنن الالهية (الربانية) [٣]:

---

[١] فاطر: من الآية: ٤٣.

[٢] ينظر: مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٢٦/ ٢٤٧.

[٣] لشدة ارتباط السنن الإلهية بخصيصة الربانية، فقد اختار بعض الباحثين تسميتها بالسنن الربانية، أصالة لا مجرد وصف، مفهوم السنن الربانية. راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في، التصور الإسلامي، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط/١،١٤٣٠هـ/ ،٢٠٠٩م ص.١٤، وكما فعل الدكتور رمضان خميس، الذي يقول: (ربانية نسبتها للرب يلحظ فيها ملامح التربية، فإن الله يربي عباده بهذه السنن الثابتة والنواميس الصارمة) ينظر: مفهوم السنن الربانية ، ص٨٥، رغم أنه شاع على بعض الألسن لفظ السنن الإلهية، ان تعبير (سنة الله) تعبير قرآني أصيل دالّ على معنى الربانية متضمن له. واسم الجلالة (الله) أعظم أسماء الله ﷻ، وأدلها على سننه في مفردات كونه. وأجمعها لما اتصف به ﷻ من صفات قدسية كاملة، ويجدر التنبيه إلى أن وصف هذه السنن بالربانية تارة وبالإلهية تارة أخرى هو من قبيل الخلاف اللفظي الذي ليس له أثر في المعنى:

أ. فيها إبراز للقدرة الإلهية، فهي أثر من آثار إظهار أفعال الله ﷻ في خلقه، وهي إبراز لقدرة الله تعالى وعلمه وعزته وحكمته، وما اتصف به من صفات قدسية كاملة[١].

ب. وإظهار القدرة الإلهية يرتبط بطلاقة المشيئة، فالله ﷻ يمارس قدرته من خلال السنن لأنها إرادة الله ﷻ [٢] التي تمثل مشيئته المطلقة وتدبيره الحكيم لما في الكون.

فكل سنة من سننه، هي كلمة من الله، وقرار رباني منه، يتدخل فيها حيثما شاء وكيفما شاء[٣]

لكن ذلك لا يعني نزع الحادثة التاريخية عن الأسباب والمسببات، ولا عن العلاقات والروابط المتعلقة بها على الساحة التاريخية، بل إن هذه الروابط

–فالذين يصفونها بالربانية ينطلقون من ربطها بمفهوم الربوبية الذي معناه : الاعتقاد بأن الله هو خالق الخلق ومدبر أمرهم ، ومن هذا المفهوم تنبثق السنن.

–وأما الذين يصفونها بالإلهية فينطلقون من ربطها بمفهوم الألوهية الذي معناه : أن الله وحده هو الجدير بالعبادة والطاعة والخضوع.

وإجمالاً فلا فرق بين الوصفين (الربانية ، الإلهية) لشدة التلازم بينهما ؛ إذ المقصود نسبتها إلى الله ﷻ، سواء باعتباره ربا أو باعتباره إلهًا.

[١] ينظر : مفهوم السنن الربانية ، رمضان خميس زكي، ص٢٥.

[٢] ينظر: دراسات قرآنية حول الإنسان والمجتمع، حسن سلمان، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٥٨.

[٣] ينظر: سنن الحضارات كما تبينها سورة الأنعام، د.يوسف كمال محمد(المتوفى:٢٠٠٤م)، دار القلم، بيروت(د.ط،د.ت) ص٨٠.

والعلاقات بين الحوادث التاريخية هي في الحقيقة تعبير عن حكمة اللهﷻ وبنائه التكويني للساحة التاريخية.[١]

ت. وفي ابراز السنن الالهية إبراز للحكمة والعدل الإلهيين، فالسنن تتسم بالحكمة والعدل لأنها فعل اللهﷻ وفعل الله ﷻ هذه صفته دائما، وهي من أسمائه الحسنى[٢].

فكلما حقق الله ﷻسنة من سننه في عباده فلنعلم يقينا أن في ذلك كله حكمة بالغة وهي عادلة،وهذا أحد أعظم أسرار إضافة السنن إلى الله ﷻ [٣].

ث. ربانية السنن شاهد على حاكميتها على كل المفردات الكونية، ما دامت من الله، فلا يفلت من نسقيتها مخلوق، "فكل مخلوق يحكم بسنن ربانية، فإذا تغيرت طبائعه فإنه يخضع لسنن

ربانية جديدة[٤] لكنه لا يخرج عنها أبدا، لكن هذا الطرح لحاكمية السنن لا

---

[١] ينظر:حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي، سميح عاطف الزين، دار الكتاب المصرى ؛ القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩١، ص٢٩ وما بعدها، وينظر حركة التاريخ في القرآن، الكفيشي، ص٢٣١.

[٢] ينظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي – قبرص، ط/١، ١٤٠٧ – ١٩٨٧، ص ١٣٠، **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي**، ٢٢٨/١، تفسير القرآن العظيم ابن كثير، ٧٤/٢،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادى ، ٤٩٠/٢.

[٣] السنن الإلهية في الحياة الإنسانية واثر الايمان بها في العقيدة والسلوك ،د. الخطيب، ص٥٥ وما بعدها .

[٤] ينظر: هي هكذا، كيف نفهم الأشياء من حولنا، بكار،ص١٠.

يعني الجبرية، إنما يعني أن وعي الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذي يجعل الإنسان قادرا على تسخيرها في الاتجاه الذي يريد، فالكون كله بما فيه السنن مسخر من الخالق سبحانه[١] لكنه يعني في الوقت نفسه أنها لا تحابي أحدا، لأنها حاكمة على الجميع، لا تنتقي ولا تنتخب[٢] .

ج. كما تدل السنن الالهية على توازن الكون ونظامه، لنسبته لخالق حكيم، بث سننه في خلقه، فكان النظام أساسه من الذرة إلى المجرة، ولهذا كان الكون دالا على اللهﷻ [٣] .

ح. الغائية : ان السنن –لكونها الالهية– فإن عملها لا بد أن يكون هادفا ينتهي إلى غاية، يسير بالخلق بخطوات واعية نحو المستقبل وليس مجرد حركة سببية فقط، مشدودة إلى سببها؛ بل مشدودة إلى غاية هادفة ومستقبلية. [٤].

خ. وما دامت السنن تنتهي بها ربانيتها إلى غاية، فإن الغاية الوجودية للإنسان توحيد اللهﷻ وعبادته لتحقيق رسالته الاستخلافية في الكون، قال ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥] ، فكل سلوك بشري هو سلوك سنني وعبادي في آن واحد؛ فالحركة في الكون تعامل مع السنن، والتعامل مع السنن اتصال بالله وعبادة له سبحانه. [٦] ، وهذا الكلام يصدق في حق الأفراد

---

[١] ينظر : مفهوم السنن الربانية ، رمضان خميس زكي، ص٥.

[٢] ينظر : المرجع السابق، ص٥٣.

[٣] ينظر : مفهوم السنن الربانية ، رمضان خميس زكي ، ص٨٦..

[٤] ينظر : حركة التاريخ في القرآن ، الكفيشي، ص٢٣٤وما بعدها.

[٥] الذاريات: ٥٦

[٦] ينظر:دراسات قرآنية حول الإنسان والمجتمع، حسن سلمان، ص١٥٨.

والأمم.

لذا فإننا نجد القرآن العظيم –ومن خلال حديثه عن السنن الإلهية– يضفي على الظواهر والتحولات التاريخية والاجتماعية جميعا، الصبغة التوحيدية، ويربطها بالله، ليقرر هذه الحقيقة،

وهي أن اللهﷻ هو المؤثر الحقيقي في الوجود فحسب[١]فهي ثابتة لا تتغير، ، ومعنى ذلك :أن السنن الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتأثربعوامل الزمان والمكان وأن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة ،لأنها مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقاتها إلا على سنن واحد[٢]، قال ﷻ :﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾[٤].

وهذا لا يعني أن الكونية منها لا تنخرق أو تنتقض، بل قد تنخرق أو تتخلف

---

[١] ينظر: معارف القرآن، محمد تقي مصباح، تعريب محمد عبد المنعم الخاقاني، الدار الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، ٤/ ٢٦٧.

[٢] مدخل إلى دراسة السنن الإلهية مجدي عاشور، لمعهد العالمي للفكر الإسلامي ،القاهرة ، . ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ،ص٨١ .

[٣] الأحزاب: ٦٢.

[٤] فاطر:من الآية: ٤٣.

أو تنتقض أحياناً لأسباب يريدها الله تعالى[١] وكل ما يظن أنه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات[٢].

٢. أنها نافذة ولا مرد لها، وقد دلّ على هذا قوله ﷻ: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[٣] .

٣. وهي مطردة لا تتخلف ، ويدل على اطرادها أن الله ﷻ قص علينا قصص الأمم السابقة وما حلّ بها لنتعظ ونعتبر ولا نفعل فعلهم لئلا يصيبنا ما أصابهم ، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها . فمن هذه الآيات قوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[٤] بعد أن

---

[١] ينظر: الرد على المنطقيين ،تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ): ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).ص٣٩١، وله جامع الرسائل، ١/ ٥٢.

[٢] ينظر: النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان،أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط/١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٨٦٩/٢.

[٣] فاطر: ٤٣.

[٤] الحشر: ٢.

قص الله تعالى علينا ما حلّ ببني النضير لسوء أعمالهم ، قال الآلوسي في هذه الآية : (أي فاتعظوا بما جرى عليهم . أي على اليهود من بني النضير . من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار ، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي ، واعتبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى . الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم كارهين . إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب وتعتمدوا على غيره ﷻوجلّ بل توكلوا عليه سبحانه)[1] ،وكذلك قوله ﷻ :﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[2] .

المطلب الثاني : أنواع السنن الالهية:

سنن الله تعالى نوعان : سنن خارقة ، وسنن جارية.

أولاً : السنن الخارقة: ونقصد بها المعجزات والكرامات وهي التي تكون على غير المألوف وغير المعتاد ، كتحول عصا موسى ﷺ إلى حية تسعى ، وكعدم حرق النار لإبراهيم الخليلﷺ.

---

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١٤/ ٢٣٥.

[2] آل عمران: ١٣٧ – ١٣٨.

قال ﷻ: ﴿ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ ﴾ [1] وقال ﷻ: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ ﴾ [2] .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: انْشَقَّ القَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اشْهَدُوا)[3]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ(دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ، فَأُتِيَ بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ، فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ) قَالَ أَنَسٌ: (فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى المَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ) قَالَ أَنَسٌ: فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ، مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ[4]

---

[1] طه: ١٩ – ٢٠.

[2] الأنبياء: ٦٨ – ٦٩.

[3] **صحيح البخاري**، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ ٢ ﴾ القمر: من الآية: ١ ومن الآية: ٢ برقم(٤٨٦٤)٦/ ١٤٢، ومسلم بلفظ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِلْقَتَيْنِ، فَسَتَرَ الْجَبَلُ فِلْقَةً، وَكَانَتْ فِلْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (اللهُمَّ اشْهَدْ)، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ،بَابُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، برقم(٢٨٠٠)٤/ ٢١٥٨.

[4] صحيح البخاري، كِتَابُ الوُضُوءِ، بَابُ الوُضُوءِ مِنَ التَّوْرِ، برقم(٢٠٠)١/ ٥١، ومسلم، بلفظ: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺدَعَا بِمَاءٍ فَأُتِيَ بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَتَوَضَّئُونَ، فَحَزَرْتُ مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى الثَّمَانِينَ. قَالَ: فَجَعَلْتُ (أَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ) كتاب الْفَضَائِلِ، بَابٌ فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، برقم(٢٢٧٩)٤/ ١٧٨٣، ومعنى قدح رحراح: إناء واسع الفم قريب القعر. (فحزرت) قدرت

، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/٢، ١٣٩٢،

ثانياً : السنن الجارية: وهي التي تجري وفق المألوف والمعتاد.

وهي قسمان:

الاول : السنن القدرية الكونية الطبيعية وهي المتعلقة بالطبيعية وما يحدث في الكون كجريان الشمس والقمر والكواكب ونحوها، وهذه النوع من السنن هي التي قد تنخرق أو تنتقض أو تتخلف أحياناً لحكمة الله تعالى ومشيئته سبحانه[١]

الثاني : السنن الدينية الشرعية وهي سنن متعلقة بدين اللهﷻ وأمره ونهيه ووعده ووعيده، كسنته تعالى في نصر رسله وأوليائه على أعدائهم، ومن أهم ما يميز هذا النوع أن سننه لا تتغير ولا تتبدل، قال ابن حزم: فإنه لا يشك أحد من المسلمين قطعاً في أن كل ما علّمه رسول الله ﷺ أمته من شرائع الدين واجبها وحرامها ومباحها فإنها سنة الله تعالى...فصح يقيناً لا شك فيه أن كل سنة سنها الله تعالى من الدين لرسوله ﷺوسنها رسوله ﷺ لأمته فإنها لا يمكن في شيء منها تبديل ولا تحويل أبداً [٢]، وقال ابن تيمية: فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين إذا قاموا بالواجب على الكافرين وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلّغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين هي سنة الله

برقم(٢٢٧٩)، ١٥/ ٣٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د.ط، د.ت) برقم(٢٠٠)٣ / ٩٣.

[١] جامع الرسائل،ابن تيمية،١/٥٢ـ ٥٤.

[٢] ينظرالإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ط،د.ت)١/ ١٢٨.

التي لا توجد منتقضة قط، وكما قال ﷻ قبل هذا: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [١]

لم يقل هنا (ولن تجد) لأن هذه سنة شرعية لا تُرى بالمشاهدة بل تُعلم بالوحي، بخلاف نصره للمؤمنين وعقوبته للمنذرين فإنه أمر مشاهد فلن يوجد منتقضاً)[٢]وقال: وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تُنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه، ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل)[٣] ، وقال: (فهذا كله يبين أن سنة الله وعادته مطردة، لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل، وإهانة مكذبيهم [٤] .

ويرى الدكتور عبد الكريم زيدان أن (سنة الله) – الجارية – تنقسم إلى قسمين :

أ. سنة الله : المتعلقة بالأشياء والظواهر والأحداث المادية.

ب. سنة الله: المتعلقة بسلوك البشر وأفعالهم في الدنيا وما يترتب عليها من نتائج في الدنيا والآخرة.[٥]

ويقسم البشايرة (السنن الجارية) كذلك إلى قسمين:

١. السنن التكوينية : وهي سنن النظام العام الذي تخضع له الكائنات كلها بوجودها المادي والفطري.

---

[١] الأحزاب: ٣٨.

[٢] ا الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ص٣٩٠.

[٣] الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ص٣٩١.

[٤] النبوات، ابن تيمية، ٩٧٨/٢.

[٥] السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات ، ص٤ـ ١٤ .

٢. السنن الإلهية التشريعية : وهو ما يختص بالإنسان أو العقلاء مما يترتب على موقفهم من التشريع الإلهي ومدى خضوعهم له أو إعراضهم عنه. [١]

وعلى هذا يمكننا تقسيم السنن الإلهية الجارية إلى قسمين:

الآول : السنن الإلهية الكونية المتعلقة بالأشياء والظواهر والأحداث المادية.

الثاني : السنن الإلهية البشرية المتعلقة بالأفراد والأمم والجماعات

الفصل الثاني

حجية السنن الالهية ومنزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته، وأهمية دراسة السنن الإلهية، ودلالة السنن الإلهية على العقيدة

المبحث الأول

حجية السنن الالهية

المطلب الأول: قطعية الثبوت

القرآن كلام الله سبحانه وتعالى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ١ ومنه تستمد الأحكام فى نطاق العقيدة والشريعة، وفى أعطافه تنظيم أحوال الخلق فى دنياهم وأخراهم، لأنه سبيل الهداية ومنهج الرشد، وسبق أن تناولت الدراسة الحديث عن خصائص السنن الالهية من الشمول والاطراد وعدم التبدل

---

[١] كيفية التعرف على السنن الإلهية من خلال القرآن الكريم ، أحمد سليمان البشايرة ، بحث منشور في مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات ، المجلد السادس ، العدد الأول ، ٢٠٠٤م ، ص ١١.

أو التحول، لذا فانها (آيات السنن الالهية) قطعية الثبوت، وذلك لأنها جزء من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كله ثبوتا قطعيا، أما دلالتها من حيث كونها حجة يعتمد عليها ويستدل بها فإنها أيضا قطعية الدلالة على المراد منها؛ وذلك لكثرة تكررها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتعاظ سواء كان ذلك في الآيات التي ورد فيها لفظ (السنن) صراحة، أو الآيات التي تناولت تفصيل السنن كالتداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشكر النعم وكفرها،والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السنن المبثوثة في القرآن الكريم.

والسنن الربانية قطعية الدلالة لما أمر الله تعالى بالسير في الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سننه ﷻ كقوله:تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [1] ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسنن الربانية، فاستدلوا بها وأقاموا من خلالها الحجة على أقوامهم؛ فمؤمن آل فرعون يقول لقومه ساحبا حكم من سبق عليهم لتحققهم بصفاتهم ، قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ

---

[1] آل عمران: ١٣٧ – ١٤١.

ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] [2] فالذي يتأمل هذه الآيات الكريمة يجد كيف استدل مؤمن آل فرعون بالسنن التي مضت في الأمم السابقة. وحقيقة السنن التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وعلى أساس هذا يكون الاستدلال بالسنة، وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله ﷻ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [3] ، وقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [4] وإنما تكون العبرة بالقياس

---

[1] غافر: ٣٠ – ٣٤.

[2] حجية السنن الإلهية في رحاب القرآن الكريم، مصطفى الشكعة ، الموسوعة القرآنية المتخصصة، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ٨١٥.

[3] آل عمران: ١٣.

[4] الحشر: ٢.

والتمثيل، ففي قصص الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصروالسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسننه وأنه لا ينقضها ولا يبدلها قال ﷻ: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [1] هذا تطبيق الاعتبار والقياس، ثم قال ﷻ ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ فنفى الدليل العقلي والسمعي فيقول: فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجو من العذاب مع مماثلتهم لهم؟[2] وهكذا يتضح أن السنن قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع.

المطلب الثاني :السـنن الربانية والنسـخ:

وإذا كان الأمر كذلك فإن النسخ الذي هو بمعنى الإزالة والمحو[3] لا يطرأ على السنن الربانية؛ وذلك حتى تستمر خصائص هذه السنن

---

[1] القمر: ٤٣ .

[2] ينظر النبوات، ابن تيمية: ٢٦٥/١ ، وقدر الدعوة، رفاعي سرور، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ص٧١وما بعدها .

[3] ينظر: الوَاضِح في أصُولِ الفِقه، أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، (المتوفى: ٥١٣هـ)، تحقيق: الدكتور عَبد الله بن عَبد المُحسن التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م،١/ ٢١٥، بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب، محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، أبو الثناء، شمس الدين الأصفهاني (المتوفى:

وفعاليتها في الأمم الحاضرة والآتية كما انطبقت على الأمم الماضية، فعموم السنن ينافي نسخها، واطرادهما أيضا ينافي نسخها، فكل خصيصة من خصائص السنن الإلهية تثبت أن النسخ لا يتفق مع السنن ولا يجري عليها، وإلا فإن معظم موارد السنن الربانية يكمن في القصص القرآني والأمثال، وهذه الأبواب لا يدخلها النسخ [1] باتفاق العلماء؛ لأنها أخبار والجانب الإخباري في القرآن لا يتطرق إليه النسخ.

المطلب الثالث :السنن الربانية والإعجاز

قلنا إن السنن تجري حسب نظام دقيق منضبط لا يتغير ولا يتحول ولا ينخرم لسبب من الأسباب، فهل هذا الانضباط والسير المطرد ينافي الإعجاز أو المعجزة؟ الواقع أن السنن الربانية إذا كانت تجري

٧٤٩هـ)، تحقيق: محمد مظهر بقا، دار المدني، السعودية، ط/١٤٠٦،١هـ / ١٩٨٦م، ٢/ ٤٨٩،التعريفات،: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط/١، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م، ص ٢٤٠.

[1] ينظر: الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،ط/١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ٣/ ٣٤٥، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد – السعودية / الرياض، ط/١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م،٥/ ٢٢٥٦، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، محمَّد بنْ حسَيْن بن حَسنْ الجيزاني، دار ابن الجوزي، ط/٥، ١٤٢٧ هـ، ص ٢٦٥.

(بحسبان) وعلى نظام منضبط، فإن المعجزة أيضا تجري حسب نظام منضبط، لكن الخط الذي تجري فيه السنن غير الخط الذي تجري فيه المعجزة، والمجال الذي تعمل فيه السنن غير المجال الذي تعمل فيه المعجزة؛ فالمعجزة أمر خارق للعادة [١] يظهره الله ﷻ على يد مدعي النبوة إثباتا له في مدعاه، أو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وعدم المعارضة، أو هي أمر قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة والرسالة [٢] ،

وتلك المعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه ومرسليه هي ما تسمى الخوارق، أو تسمى السنن الخارقة، وهي التي تقابل السنن الجارية، فإذا كانت السنن الجارية تمضي حسب ناموس منضبط ظاهر للناس عرفوه وألفوه، فإن المعجزة أو السنن الخارقة أيضا تجري حسب ناموس منضبط لكنه مغاير للناموس الذي تجري عليه السنن الجارية ، فالله ﷻ له من طلاقة القدرة بحيث يخفي الظاهرة عن القانون الذي يحكمها، سواء أكان ذلك في الطبيعة أم كان

---

[١] ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط/١، ١٤١٨ هـ، ص ٥٠٧، قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر

، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ط/١، ١٤٢١هـ، ص ١٠٣.

[٢] شرح المقاصد في علم الكلام ، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (المتوفى: ٧٩٣ هـ)، دار المعارف النعمانية – باكستان ،ط/١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ٣/ ٣٨٥.

في الأحياء أم كان في الاجتماع والسلوكيات؛ ففي مجال الطبيعة مثلا ما ورد في الشرع من حادثة انشقاق القمر[١] قال ﷻ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾[٢] ، وانفلاق البحر، قال تعالى :﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[٣] وحجب النار عن طبيعتها وهي الإحراق. قال ﷻ : ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[٤] .

وفي مجال الحياة وقوانينها فإبراهيم ﷺ يلقى في النار ولا يحترق ولا يموت من نقص الأكسجين، ويونس ﷺيعيش في بطن الحوت تحت طبقات الماء فترة من الزمن ولا تتأثر حياته بذلك، قال ﷻ: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ ﴾[٥]

وفي مجال الاجتماعيات فان موسى ﷺينتصر بقلب العصا ثعبانا،﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾[٦] وأن سيدنا محمدا ﷺينتصر بمعونة خمسة آلاف من الملائكة﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم

---

[١] سبق تخريجه ،ص٥٩.

[٢] القمر: ١.

[٣] الشعراء: ٦٣ .

[٤] الأنبياء: ٦٩ .

[٥] الصافات: ١٤٢ – ١٤٥.

[٦] الأعراف: ١٠٧ ، الشعراء: ٣٢.

بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [1] ولا تعارض هنا بين السنن الثابتة الجارية والسنن الخارقة؛ فكل يجري حسب قانونه المنضبط لا يحيد عنه ولا يميد.[2]

والسنن الجارية كما رأينا في خصائصها لا تستثنى ولا تحابي (حتى معجزة الأنبياء التي قد تفهم على أن معناها قائم على خرق السنة، نلاحظ أن معناها لا يقوم أصلا إلا على أساس حقيقة السنة.وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصا بها ولا يكون مشتركا بين الأنبياء وغيرهم، والرب تعالى لا ينقض عادته التي هي سنته في التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره ويختص به. ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها، والله ﷻ يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس،قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [3] وهو ﷻ ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [4] ، ، فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك،

---

[1] آل عمران: ١٢٥ .

[2] ينظر : مدخل إلى دراسة السنن الإلهية، عاشور، ص ٢٣، الهجرة بين سنة الله الجارية والخارقة، د. طه الدسوقي حبيشي الدمياطي(المتوفى:٢٠٢٠م) ، جامعة الأزهر – مكتبة رشوان، القاهرة،: ١٩٩٨، ص١٩.

[3] الحج: ٧٥ .

[4] الأنعام: من الآية: ١٢٤.

فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة، وتلك سنته وعادته في أمثاله؛ يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلا، فلم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها؛ بل عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشك فيها[١] فالمعجزة شيء لا يخالف العقل ولكنه يخالف المألوف والمتواتر في المحسوس، فإذا كان كل عمل من الأعمال خلقا مباشرا في إرادة اللهﷻ فلا فرق في حكم العقل بين مرفوع المعجزة ووقوع المشاهدات المتكررة في كل لحظة[٢]فالإعجاز لظواهر الكون لا يخرق السنن الجارية وإنما يمضي هو حسب قانون خاص به، لكن هناك علاقة أكيدة بين السنن الجارية والسنن الخارقة.

والعلاقة بين السنن الجارية والسنن الخارقة، علاقة وطيدة وعروة وثقى فإن السنن الجارية والسنن الخارقة يخرجان من مشكاة واحدة، ومصدر الجميع الله ﷻوما هذه السنة وتلك إلا أثر الإظهار لأفعال الله ﷻ، وإذا كانت السنن الخارقة تمضي على غير المألوف للناس، فإن السنن الجارية تمضي على مايألفون ويعرفون لذلك تعبدهم الله ﷻ بالتعامل مع هذه السنن، وهم يأثمون

---

[١] ينظر: النبوات ،ابن تيمية، ٢٣٣/١ ، قدر الدعوة، رفاعي سرور، ص٧٣ وما بعدها .

[٢] ينظر: الفلسفة القرآنية،عباس محمود العقاد(المتوفى: ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، (د.ط، د.ت)، ص١٨.

إذا قصروا في التعامل أو تركوها دون استفادة منها، فالمسلم المعاصر لا يعيش الآية في زمن المعجزات وإنما يعيش في زمن السنن الجارية التي لا تتوقف ولا تتأجل، وهو مطالب شرعا بالتعامل مع هذه السنن الربانية ليثير الأرض ويعمرها ويحي الزرع والضرع، ويكون بحق خليفة الله تعالى في أرضه، فإن خيرات اللهﷻ في الأصل للمؤمن ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

اما العلاقة بين السنن الربانية الجارية والإرادة الإلهية ، فلا يظن ظان أن السنن الجارية لأنها تجري بثبات واطراد أنها تجري من ذاتها أو أن فعلها فعل ذاتي، فهذا فهم غير صحيح؛ لأن السنن الجارية على الرغم صفاتها هذه إلا أنها في النهاية مربوبة للهﷻ ،والمسلم مدرك أن شيئا لا يقع في الكون إلا بقدر الله تعالى ، والحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن أن يحدث إلا بأمر الخلق المباشر من إرادة الله ﷻ، فلا ينساق في العقل أن الحادثة تحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الإرادة الإلهية؛ لأن الناموس لا يملك وحده قدرة الانطباق والتوافق التي يسبب بها ألف حادث على نسق واحد، ولا بد له من القدرة التي يتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثا حادثا بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل، فلا فرق هنا بين الحادث الذي يقع مرة واحدة والحادث الذي يقع ملايين المرات، فكلها تتوقف في بادئ الأمر على إرادة الخلق والإنشاء[2] .

---

[1] الأعراف: ٣٢ .

[2] ينظر: الفلسفة القرآنية، العقاد،ص١٧.

المبحث الثاني
منزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته وأهمية دراستها

المطلب الأول: منزلة الاستدلال بالسنن الإلهية وحقيقته

الاستدلال : هو استنتاج قضية مجهولة من قضية أو من عدة قضايا معلومة، أو : هو التوصل إلى حكم تصديقي مجهول بملاحظة حكم تصديقي معلوم ، أو بملاحظة حكمين فأكثر من الاحكام التصديقية المعلومة ، أو : هو عملية عقلية منطقية ينتقل فيها الباحث من قضية أو عدة قضايا إلى قضية اخرى تستخلص منها [١].

أي : هو تلك العملية العقلية المنطقية التي ينتقل فيها الباحث من الاعتقاد بقضية أو أكثر (مقدمات) إلى الاعتقاد بقضية أخرى (النتيجة) ترتبط بها وتلزم عنها بالضرورة لوجود علاقة منطقية بينهما بصرف النظر عن صدق أو كذب المقدمات أو النتيجة الحاصلة منها[٢] .

---

[١] ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني،دار القلم ، دمشق،ط/١٤١٤،٤هـ ـ ١٩٩٣م ، ص ١٤٩ .

[٢] اسس المنطق الصوري ومشكلاته ، د. محمد علي ، بالاشتراك مع د. علي عبد المعطي ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية،ط/٣ ، ١٩٧٥م . ص٢١٣ وما بعدها ، المنطق ، د. كريم . متي ،مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٠م ، ص٦٨ فما بعدها ، ص٩٣ فما بعدها .

ويعتبر الاستدلال بسنن الله ﷻ وعاداته ضرب من الاستدلال بالأمور الظاهرة البينة التي لا يمكن أن ينكرها منكر، ولهذا أصبح هذا الاستدلال (طريقٌ برهاني ظاهر لجميع الخلق وهم متفقون عليه)[١] ، والطريق البرهاني [٢]هو ما كانت مواده يقينية، واليقينيات تشمل الحسيات الباطنة والظاهرة والبديهيات والمتواترات والمجربات[٣].

وأما حقيقة الاستدلال بسنن الله تعالى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشيء بنظيره؛ وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين؛ وهو الاعتبار المأمور به في القرآن؛ كقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم

---

[١] النبوات، ابن تيمية، ٢/ ٩٥٨ .

[٢] البرهان قياس مؤلف من يقينيات وينتج يقيناً بالذات اضطراراً ، وبعبارة أخرى : هي الحجة التي تفيد اليقين . وتتألف في القياس من مقدمات يقينية على هيئة تفيد نتيجة يقينية ، واليقين فيها مساوٍ لليقين في المقدمات .

وهذه الحجة البرهانية طريقها احد طرق الاستدلال المباشر ، أو القياس الصحيح المصوغ وفق احد الاشكال المنتجة بيقين ، ويلاحظ وجودها في الحقائق الفكرية .

ينظر: كتابنا القواعد المنطقية و أصول الاستدلال في المنهج الإسلامي ص٣١٠.

[٣] ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ، ٩/ ٧٠، ٢٨٥.

[٤] آل عمران: ١٣.

مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [١] ، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾[٢])[٣] .

المطلب الثاني :أهمية دراسة السنن الإلهية

النظر في السنن الإلهية فريضة وضرورة ، فهو فريضة للآيات الكريمة التي تحث على النظر والسير والاعتبار بمن خلوا ، والتفكر في آثار الذاهبين ؛ قال ﷻ ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[٤] ،﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [٥] ،﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ ﴾ [٦] ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [٧] ،فالسعيد من وعظ بغيره[٨] ، وضرورة للظرف الراهن الذي

---

[١] الحشر: ٢ .

[٢] يوسف: من الآية: ١١١ .

[٣] النبوات، ابن تيمية، ٢/ ٩٦٣.

[٤] الأنعام: ١١.

[٥] النمل: ٦٩.

[٦] الروم: من الآية:٤٢.

[٧] يوسف: من الآية:١١١.

[٨] مسلم ، تمام الحديث: عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ، أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَأَتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَالُ لَهُ: حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي

الذي يمر به المسلمون اليوم ، ولأمر ما كانت توجيهات القرآن الكريم للمسلمين عقب كل قصة من قصصه في شكل خلاصة نادرة كأنها اختزال للحدث كله ، وإشارة للاحقين للانتفاع من أحوال السابقين ، ففي قصة قارون ما يشبه السنة العامة والقانون المطرد قال ﷻ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

وسنن الله تعالى التي بينها الله ﷻ في القرآن الكريم أو بينها الرسول ﷺ جديرة بالدراسة والفهم ، بل إن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جداً والواجبة ديانة ، لأن معرفتها معرفة لبعض الدين قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، قال الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: (والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جمع ما

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: (إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ) كتاب الْقَدَرِ، بَابُ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، برقم(٢٦٤٥) ٤/ ٢٠٣٧ .

(١) القصص: ٨٣.

(٢) النحل: من الآية:٨٩ .

يتعلق بأمور الدين أي بيانا بليغا لكل شيء يتعلق بذلك ومن جملته أحوال الأمم من أنبيائهم عليهم السلام)[١] .

ومن الواضح أن أحوال الأمم مع أنبيائهم التي اعتبرها الألوسي رحمه الله بحق أنها من جملة الدين ، هذه الأحوال تعني ما جرى لهم مع أنبيائهم وما حلّ فيهم بسبب سلوكهم معهم وموقفهم منهم وفقاً لسنة الله ﷻ، وما طلبه الله ﷻ منا من الاتعاظ والاعتبار بهم . فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن اللهﷻ جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين ، وأن هذه المعرفة ضرورية.

ومن الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة ، وبذلك ننجو مما حذّرنا الله ﷻ منه ، ونظفر بما وعد اللهﷻ به عباده المؤمنين المتقين.

وقليل من العلماء السابقين الذين توقفوا عند النظر في سنن الله تعالى والكتابة حولها ، ومن أبرز هؤلاء حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله ، الذي يقسم العلم إلى محمود ومذموم، ويقول في بيان قدر المحمود من المعلوم المطلوب : أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة . [٢]

وجعل الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله المرتبة العليا في فهم تفسير القرآن الكريم ، وتفسيره لا يتم إلا بأمور من أهمها علم أحوال البشر أو علم السنن الإلهية يقول : (عِلْمُ أَحْوَالِ الْبَشَرِ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ،

---

[١] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ٧/ ٤٥٢.

[٢] إحياء علوم الدين،١/ ٣٩.

وَبَيَّنَ فِيهِ مَا لَمْ يُبَيِّنْهُ فِي غَيْرِهِ. بَيَّنَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْخَلْقِ وَطَبَائِعِهِمْ وَالسُّنَنَ الْإِلَهِيَّةَ فِي الْبَشَرِ، قَصَّ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ عَنِ الْأُمَمِ وَسِيَرِهَا الْمُوَافِقَةِ لِسُنَّتِهِ فِيهَا. فَلَا بُدَّ لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ فِي أَطْوَارِهِمْ وَأَدْوَارِهِمْ، وَمَنَاشِئِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ، مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ، وَعِلْمٍ وَجَهْلٍ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ، وَيُحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَى فُنُونٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا التَّارِيخُ بِأَنْوَاعِهِ)[١].

(قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَنَا لَا أَعْقِلُ كَيْفَ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[٢] وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْبَشَرِ، وَكَيْفَ اتَّحَدُوا، وَكَيْفَ تَفَرَّقُوا؟ وَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْوَاحِدَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَافِعَةً أَمْ ضَارَّةً؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ آثَارِ بَعْثِهِ النَّبِيِّينَ فِيهِمْ)[٣].

(أَجْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَلَامَ عَنِ الْأُمَمِ، وَعَنِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ، وَهُوَ إِجْمَالٌ صَادِرٌ عَمَّنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَمَرَنَا بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِنَفْهَمَ إِجْمَالَهُ بِالتَّفْصِيلِ الَّذِي يَزِيدُنَا ارْتِقَاءً وَكَمَالًا، وَلَوِ اكْتَفَيْنَا مِنْ عِلْمِ الْكَوْنِ بِنَظْرَةٍ فِي ظَاهِرِهِ، لَكُنَّا كَمَنْ يَعْتَبِرُ الْكِتَابَ بِلَوْنِ جِلْدِهِ لَا بِمَا حَوَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ)[٤].

---

[١] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا،١/٢٠ وما بعدها.

[٢] البقرة: من الآية: ٢١٣.

[٣] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا،١/ ٢١.

[٤] المصدر السابق نفسه.

المبحث الثالث

دلالة السنن الإلهية على العقيدة

المطلب الأول : دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالله ﷻ

الركن الأول من أركان الإيمان: وهو الإيمان بالله ويمكن استجلاء دلالة السنن الإلهية فيه من خلال عدة أمور، منها:

أولاً: أن الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بربوبيته، وربوبيته هي توحيده سبحانه بأفعاله، وكل ما يجري من سنن الله في الكون هي من أفعال الله ﷻ، فالإيمان بهذه السنن داخل في الإيمان بالله وربوبيته، ذلك أن الله ﷻ يفعل ما يشاء، قال ﷻ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [1]، وقال ﷻ: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [2] وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [3] .

وأعقب الله ﷻ ذكر بعض سننه تعالى بوصفه بأنه يفعل ما يريد ويفعل ما يشاء، قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [4] ، وقال ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي

---

[1] البقرة: من الآية:٢٥٣.
[2] آل عمران: من الآية: ٤٠.
[3] الحج: من الآية: ١٨.
[4] الحج: ١٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [1]

ثانياً: أن التأمل والتفكر في السنن الإلهية من أدلة ربوبية اللهﷻ ، فما أحدثه الله ﷻ في الكون من السنن أَمرنا تعالى بالتأمل والتفكر فيه للاستدلال على وجوده وربوبيته وملكه وتدبيره ﷻ، ومن ذلك أمره تعالى بالنظر في سننه تعالى في عاقبة الهلاك للظالمين في عدة مواضع من كتاب الله تعالى قال تعالى: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [2] ،وقالﷻ : ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [3] ، وقال ﷻ: ﴿ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [4]، وقال ﷻ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ

---

[1] الحج: ١٨.

[2] آل عمران: ١٣٧.

[3] الأنعام: ١١.

[4] الأعراف: من الآية:٨٦.

عَقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[1] ،وقال ﷻ: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴾[2] .

فرغب أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعيا لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها. وفيه أيضا زجر للكافر عن كفره لأنه إذا تأمل أحوال الكفار وإهلاكهم صار ذلك داعيا إلى الإيمان لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر في النفس[3].

ثالثاً: أن تخلف بعض السنن وانتقاضها أحياناً دليلٌ قاطع على وجود الله تعالى، إذ إن بعض سنن الكون قد تتبدل وتتغير، والله ﷻ يفعل ما يشاء بحكمته وقدرته واختياره، فإن السنن (بلا شك) تحت تصرف الله ﷻ وإرادته وقهره، ولو شاء أن يبطلها لأبطلها، بأن يفقدها نتائجها المحتومة، أو يوجد الأشياء من دون أسبابها المسنونة، وخرقُ وتخلفها السنن الإلهية ليس هو

---

[1] النمل: ٦٩.

[2] الروم: ٤٢.

[3] لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت،ط/١، ١٤١٥ هـ، ١/ ٣٠٠، وينظر: تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٩/ ١٦٦ وما بعدها، التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط/١، ١٤١٦ هـ، ١/ ٢٥٥.

الأصل بل الأصل هو اطّراد السنن كما تقدم[١] .

وفي هذا رد على طائفتين:

الطائفة الأولى: الفلاسفة الذين يزعمون أن الله ﷻ فاعل بالطبع والإيجاب لا بالمشيئة والقدرة والاختيار، بل إن السهروردي احتج بالآيات الواردة في عدم تبديل سنن الله ﷻ على أن العالم لا يتغير بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله ﷻ[٢] وقال: إن العالم لم يزل ولا يزال هكذا، بناء على أن هذه سنة الرب ﷻ وعادته وهي لا تبديل لها، إذ كان عندهم ليس فاعلاً بمشيئته واختياره بل موجب بذاته[٣] .

والرد على قولهم من وجوه:

الوجه الأول: مناقضة قولهم لصريح القرآن الكريم الذي صرح بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار ما يريد بعد ذكره لبعض سننه ﷻ، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٤] ، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ

---

[١] ينظر: أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام الشرعية ،د. محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط/٦ ، ١٤٢٤ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١/ ٢٥١.

[٢] الالواح العمادية، يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، السهروردي (المتوفى: ٥٨٧) ، تحقيق: د. نجفقلي حبيبي،دارالجمل، بغداد، ط/١ ،٢٠١٤م، ص٥٣.

[٣] ينظر: جامع الرسائل، ابن تيمية ، ١/ ٥٢، وله: الرد على المنطقيين، ص٣٩٠ وما بعدها.

[٤] الحج: ١٤.

مَا يَشَآءُ ﴾ [1] .

كما صرح بذلك بعد ذكره لتخلف أو نقض بعض السنن بإرادته ﷻ فقال ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [2] ،وقال ﷻ: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3] .

الوجه الثاني: أن السنن الطبيعية ليس لله ﷻ فيها سنة لازمة، فإنه قد عرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن فهذا تبديل وقع، قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [4] [5]. ، فانخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة [6].

الوجه الثالث: ما عُرِف من انتقاض السنن الخاصة، فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين وقد خُلق عيسى عليه السلام من أم، كما خلقت حواء من أب، وخُلق آدم عليه السلام من غير أم ولا أب، قد تضافرت الأدلة الشرعية من نصوص الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة ومن تبعهم من الأئمة على أن آدم عليه السلام أصل النوع البشري ، خلقه الله ﷻ من تراب ،قال ﷻ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

---

[1] الحج:من الآية: ١٨.

[2] آل عمران: ٤٠.

[3] آل عمران: ٤٧.

[4] إبراهيم: من الآية: ٤٨ .

[5] ينظر: جامع الرسائل، ابن تيمية،٥٣/١.

[6] ينظر: :الرد على المنطقيين، ابن تيمية ص٣٩١

ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [١] ، ثم خلق منه زوجته حواء ، فبث منهما البشر جميعا قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[٢] .

قال الطبري:يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾[٣] أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[٤] يَعْنِي مِنْ آدَمَ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٥] يَقُولُ: ثُمَّ جَعَلَ مِنْ آدَمَ زَوْجُهُ حَوَّاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ[٦]، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِﷻ: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[٧] ، وقَالَ: حَوَّاءُ مِنْ قُصَيرَى آدَمَ وَهُو نَائِمٌ[٨] .

قال ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا خَلْقَهُ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ آدَمُ عليه السلام وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَهِيَ حَوَّاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَيْسَرِ[٩]، فمبدأ البشر آدم ، ثم جاءت منه حواء ، ثم جاء منهما البشر جميعا.

---

[١] آل عمران: ٥٩

[٢] النساء: من الآية: ١.

[٣] البقرة: من الآية: ٢١.

[٤] النساء: من الآية: ١.

[٥] الزمر: من الآية: ٦.

[٦] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٠/ ١٦١.

[٧] النساء: من الآية: ١.

[٨] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن،٦/ ٣٤١.

[٩] تفسير القرآن العظيم ، ٢/ ١٨١.

يوضح ذلك قوله ﷻ: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [1] .

واضح الدلالة على أن خلق آدم كان أولا ، ثم خلقت حواء منه بعد ذلك.

وعبّر بحرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب والعطف الرتبي ؛ ليبين أن ترتيب الخلق هكذا : آدم أولا ، ثم حواء منه ، ثم سائر البشر منهما.

وأكد ذلك بقوله ﷻ ﴿ نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ ليدل على أن أصل النوع البشري نفس واحدة ، لا نفسان.

وَفِيهِ دَلِيل لِمَا يَقُولهُ الْفُقَهَاء أَوْ بَعْضهمْ أَنَّ حَوَّاء خُلِقَتْ مِنْ ضِلْع آدَم ، قَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [2] .

وَبَيَّنَ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضِلْع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ) [3].

---

[1] الزمر: من الآية: ٦.

[2] النساء: من الآية: ١.

[3] صحيح البخاري، كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ برقم(٣٣٣١)٤/ ١٣٣، ومسلم ، بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» كِتَابُ الرِّضَاعِ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ، برقم(١٤٦٨)٢/ ١٠٩١.

وهذا بيان من السنة الصحيحة أن حواء خلقت من ضلع.

وهذا من تمام قدرته سبحانه ومطلق مشيئته ؛ ليعلم المخلوق كيف كان أصله ، وما هو مبدأ خلقه ، وأن الله على كل شيء قدير ، فيعلم ضعفه وقلة حيلته ، ويعلم عظمة ربه في قدرته ومشيئته ، فحري به بعد ذلك أن يؤمن به ويسلم له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :خلق سائر الخلق من ذكر وأنثى ، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ؛ فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء [١] .

وقال ابن القيم: ليُرِيَ عبادَه أنه خالقُ أصناف الحيوان كلِّها كما شاء، وفي أيِّ صورةٍ شاء ، وفي أيِّ لونٍ شاء؛ فمنها: المتشابهُ الخِلْقة المتناسبُ الأعضاء، ومنها: المختلفُ التَّركيب والشكل والصُّورة، كما أرى عبادَه قدرتَه التَّامَّة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدَّالَّة على أنه مخلوقٌ بقدرته ومشيئته تابعٌ لها: فمنه ما خُلِق من غير أبٍ ولا أمٍّ؛ وهو أبو النَّوع الإنساني، ومنه ما خُلِق من ذكرٍ بلا أنثى؛ وهي أمُّهم التي خُلِقَت من ضلَع آدم، ومنه ما خُلِق من أنثى بلا ذكرٍ؛ وهو المسيحُ بن مريم، ومنه ما خُلِق من ذكرٍ وأنثى؛ وهو

---

[١] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن – عبد العزيز بن إبراهيم – حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط/٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ،٤/ ٥٤.

سائرُ النَّوعِ الإنسانيّ. ليُرِيَ عبادَه آياتِه، ويتعرَّف إليهم بآلائه وقدرته، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: "كُن"؛ فيكون[١].

وقال الشنقيطي: أَنَّ مِنْ حِكَمِ خَلْقِهِ عِيسَى مِنِ امْرَأَةٍ بِغَيْرِ زَوْجٍ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ، أَيْ عَلَامَةً دَالَّةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ: إِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ أُنْثَى بِدُونِ ذَكَرٍ كَمَا فَعَلَ بِعِيسَى، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ ذَكَرٍ بِدُونِ أُنْثَى كَمَا فَعَلَ بِحَوَّاءَ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، أَيْ: خَلَقَ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ الَّتِي هِيَ آدَمُ زَوْجَهَا حَوَّاءَ، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ بِدُونِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى مَعًا كَمَا فَعَلَ بِآدَمَ، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى كَمَا فَعَلَ بِسَائِرِ بَنِي آدَمَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ[٢]

وعلى ذلك جمهور علماء المسلمين من السلف والخلف : أن الله تعالى خلق آدم أولا ثم خلق منه حواء ، ثم خلق منهما البشر جميعا:

عَنْ قَتَادَةَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا قَالَ: خُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلاعِهِ لِيَسْكُنْ إِلَيْهَا[٣].

---

[١] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد ، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإِصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط/١، ١٤٣٢ هـ، ٢/ ٦٨٨ وما بعدها.

[٢] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، (د.ط) ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م ، ٣/ ٣٨٨ وما بعدها.

[٣] تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم ، ٥/ ١٦٣١.

وقال البغوي: خلق الله حواء من ضلع آدم[١]

ثم روى معناه عن ابن عباس والسدي وابن إسحاق[٢].

الوجه الرابع: ما عُرِف من انتقاض السنن العامة، فقد وقعت في العالم كالطوفانات الكبار[٣] .

الطائفة الثانية: الملحدون الماديون الزاعمون أن الطبيعة هي المتصرفة في شؤون الكون: فالقول بأن كل شيء في الكون يسير بمقتضى قانون الطبيعة ، شرك بالله تعالى في ذاته وصفاته وكفر به، قال ابن حزم ، وهو يرد على بعض من قال بهذا القول :وأما أَن كل هَذَا فعل الطبيعة فغباوه شَدِيد وَجَهل بالطبيعة وَمعنى لفظ الطبيعة إِنَّمَا هِيَ قُوَّة الشَّيْء تجْرِي بهَا كيفياته على مَا هِيَ عَلَيْهِ وبالضرورة نعلم أَن تِلْكَ الْقُوَّة عرض لَا يعقل وكل مَا كَانَ مِمَّا لَا اخْتِيَار لَهُ من جسم أَو عرض كالحجارة وَسَائِر الجمادات فَمن نسب إِلَى مَا يظْهر مِنْهَا أَنَّهَا أفعالها مخترعه لَهَا فَهُوَ فِي غَايَة الْجَهْل وبالضرورة نعلم أَن تِلْكَ الْأَفْعَال خلق غَيرهَا فِيهَا وَلَا خَالق هَاهُنَا إِلَّا خَالق الْكل وَهُوَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُو[٤].

و الشيء الحادث لا يخلق نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقاً ؟

---

[١] معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، ٧ /١٨٦.

[٢] فتح القدير، الشوكاني ،٢/ ٣١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ،١/ ٤٢٩،

[٣] ينظر: جامع الرسائل، ابن تيمية ،٥٣/١وما بعدها.

[٤] الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة (د. ط، د.ت)٣/ ٣٥.

و الشيء المرئي لا يكون منه إلا شيئاً مرئياً لذا المادة لا يمكنها أن تخلق الشيء اللامرئي ، و لا يجوز أن نجعل اللامرئي انعكاساً إلى الشيء المرئي إذ شتان بينهما. و عليه فإن المادة تكون ناقصة قاصرة وعاجزة عن الخلق، و بما أن اللامرئي من الأشياء الحادثة لا يمكنه أن يخلق المرئيات من الأشياء إذن و وفق الاستدلال المنطقي نصل إلى أن الشيء اللامرئي برهان قاطع على وجود الخالق.

فالقول ان الطبيعة هي الخالق فرية راجت في عصرنا هذا، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادّية، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

إذا قالوا: نعني بالطبيعة الكون نفسه، فإننا لا نحتاج إلى الردّ عليهم، لأنّ فساد قولهم ، لانّ الشيء يوجد نفسه، أي: إنّهم يقولون الكون خلق الكون، فالسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وأنّ العقل الإنساني يرفض التسليم بأنّ الشيء يوجد نفسه، ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول: والشيء لا يخلق شيئاً أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلاً ولا سمعاً ولا بصراً، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليماً بصيراً! هذا لا يكون[١].

---

[١] ينظر: العقيدة في الله، عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط/١٢، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م، ص ٧٩.

سبحان ربي هل الطبيعة اللاعاقلة و اللامريدة أوجدت هذا الانسان العاقل و المريد ؟!!.

قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[1] وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2] ، وقال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3] ، وقال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5] ، وقال ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[6] ، وهو القائل ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[7]،

---

[1] الأنعام: ١٠٢.

[2] الزمر: ٦٢.

[3] غافر: ٦٢.

[4] البقرة: ٢٩.

[5] آل عمران: ١٩٠.

[6] الأنعام: ١.

[7] إبراهيم: ١٩.

وقال ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [1] .

كما يمكن الرد على قولهم بنفس الوجوه السابقة ويضاف عليها بأنه لو كانت الطبيعة هي التي تُصرف الكون لأصبح كل ما في الكون سنة لازمة لا تتغير ولا تتبدل أبداً، وهذا خلاف الواقع المشاهد المحسوس، مما يدل أنه يتم تصريفه بمشيئة الله تعالى وحكمته.

وفي هذه الدلالة العقلية دعوة للملحدين إلى الإيمان بالله تعالى، ببيان أن ما يجري على خلاف السنن المعتادة يدل على وجود خالق يصرف هذا الكون كيف يشاء[2].

المطلب الثاني: دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالرسل

الإيمانُ بأنبياءِ اللهِ تعالى ورُسُلِه رُكنٌ من أركانِ الإيمانِ، وأصلٌ من أصولِه، لا يصحُّ إيمانُ العبدِ إلَّا به.

وعلى ذلك دلَّ الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ.

فمن الكِتابِ:

١. قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ

---

[1] الروم: ٢٢ .

[2] السنن الإلهية ودلالاتها على مسائل الاعتقاد من خلال القرآن الكريم ،د إبراهيم بن عبدالله بن صالح المعثم ، جامعة القصيم ، المملكة العربية السعودية، (د.ط،د.ت) ص ١٦٢.

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

قال ابنُ كثير :(وَقَوْلُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَطْفٌ عَلَى الرَّسُولُ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ فَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرْدٌ صَمَدٌ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، بَلِ الْجَمِيعُ عِنْدَهُمْ صَادِقُونَ بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَنْسَخُ شَرِيعَةَ بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ حَتَّى نُسِخَ الْجَمِيعُ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّذِي تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيعَتِهِ)[2].

٢. قَولُ اللهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢ ﴾[3]

قال الطبري: الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ

---

[1] البقرة: ٢٨٥.

[2] تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥٧٢.

[3] النساء: ١٥٠ – ١٥٢.

عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾بِأَنْ يُكَذِّبُوا رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى خَلْقِهِ بِوَحْيِهِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمُ افْتَرَوْا عَلَى رَبِّهِمْ ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى إِرَادَتِهِمُ التَّفْرِيقَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، بِنِحْلَتِهِمْ إِيَّاهُمُ الْكَذِبَ وَالْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ ، وَادِّعَائِهِمْ عَلَيْهِمُ الْأَبَاطِيلَ. ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ ﴾يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: نُصَدِّقُ بِهَذَا وَنُكَذِّبُ بِهَذَا ، كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ عِيسَى وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَتَصْدِيقِهِمْ بِمُوسَىﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ بِزَعْمِهِمْ ، وَكَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى مِنْ تَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا ﷺوَتَصْدِيقِهِمْ بِعِيسَىﷺ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ بِزَعْمِهِمْ. ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾يَقُولُ: " وَيُرِيدُ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، الزَّاعِمُونَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ أَضْعَافِ قَوْلِهِمْ: نُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، سَبِيلًا: يَعْنِي طَرِيقًا إِلَى الضَّلَالَةِ الَّتِي أَحْدَثُوهَا وَالْبِدْعَةِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا ، يَدْعُونَ أَهْلَ الْجَهْرِ مِنَ النَّاسِ إِلَيْهِ. فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِعِبَادِهِ ، مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ ﴾يَقُولُ: " أَيُّهَا النَّاسُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكُمْ صِفَتَهُمْ هُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ بِي ، الْمُسْتَحِقُّونَ عَذَابِي وَالْخُلُودَ فِي نَارِي حَقًّا ، فَاسْتَيْقِنُوا ذَلِكَ [1].

---

[1] ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن،٧/ ٦٣٤وما بعدها.

ومِنَ السُّنَّةِ:

قَولُه ﷺ حين سأله جبريلُ عليه السلام عن الإيمان: قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، [1].

---

[1] رواه البخاري في صحيحه، بلفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: (الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ). قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: (الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ). قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: (مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ لقمان: من الآية: ٣٤ ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: (رُدُّوهُ) فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ) قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ، برقم(٥٠)١/ ١٩ ،ومسلم، بلفظ: قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي

قال الإسماعيلي: اعلموا رحمنا الله وإياكم أن مذهب أهل الحديث أهل السنة والجماعة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقبول ما نطق به كتاب الله تعالى، وصحت به الرواية عن رسول الله ﷺ، لا معدل عن ما ورد به ولا سبيل إلى رده[١].

ومن الإجماعِ:

قال ابنُ العَطَّارِ: يجب الإيمانُ بجميع رسل الله وأنبيائه. وأن جميع ما جاؤوا به حقٌّ وصدقٌ، قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[٢].

قال العلماء: لا يكون الرجل مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء السابقين وجميع الكتب؛ التي أنزلها الله ﷻ على جميع الرسل كما قال الله ﷻ ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ

الْبُنْيَانِ)، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: (يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟) قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) كِتَابِ الطَّهَارَةِ، برقم(٨) ١/ ٣٦ ، عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ(رضي الله عنهما).

[١] اعتقاد أئمة الحديث، أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (المتوفى: ٣٧١هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة – الرياض، ط/١، ١٤١٢هـ، ص ٤٩.

[٢] البقرة: ١٣٦.

وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [1] .

وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [2] [3]

من اعترفَ بالوحدانية والإلهية، وجحد النبوةَ من أصلها عموماً، أو نبوة نبيّنا خصوصاً، أو أحدٍ من الأنبياء الذين نُصَّ عليهم بعد علمه بذلك، فهو كافرٌ بلا ريب كالبراهمة[4] ، ومعظم اليهود ، والأروسيّة[5] .... [1]

---

[1] آل عمران: ٨٤ .

[2] النساء: ١٣٦.

[3] الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان بن سليمان، أبو الحسن، علاء الدين ابن العطار (المتوفى: ٧٢٤هـ)، تحقيق: الدكتور سعد بن هليل الزويهري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط/١، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، ص ٢١٠.

[4] البراهمة: هم أمة من أمم الهند، ينسبون إلى رجل يقال له (براهما)، وهو ملك من ملوكهم القدماء، قالوا: بنفي النبوات، وقرروا استحالة ذلك في العقول، وهم أصناف وفرق منهم: أصحاب البددة، وأصحاب الفكرة، وأصحاب التناسخ. وهم في الأصل خدمة إله الهنود برهما، ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ،١/ ٦٣، الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، مؤسسة الحلبي(د.ط،د.ت) ٣/ ٩٦.

[5] الأروسية: أَصْحَاب أريوس وَكَانَ قسيساً بالإسكندرية وَمن قَوْله التَّوْحِيد الْمُجَرّد وَأَن عِيسَى عليه السلام عبد مَخْلُوق وَأَنه كلمة الله تَعَالَى الَّتِي بهَا خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض وَكَانَ فِي

وَكَذَلِكَ مَنْ دَانَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَصِحَّةِ النُّبُوَّةِ وَنُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَلَكِنْ جَوَّزَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْكَذِبَ فِيمَا أَتَوْا بِهِ. ادَّعَى فِي ذَلِكَ الْمَصْلَحَةَ- بِزَعْمِهِ- أَوْ لَمْ يَدَّعِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعٍ...[٢] وَكَذَلِكَ مَنْ أَضَافَ إِلَى نَبِيِّنَا ﷺ تَعَمُّدَ الْكَذِبَ فِيمَا بَلَّغَهُ وَأَخْبَرَ بِهِ، أَوْ شَكَّ فِي صِدْقِهِ، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُبَلِّغْ أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ أَزْرَى عَلَيْهِمْ.. أَوْ آذَاهُمْ.. أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ حَارَبَهُ.. فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعٍ.[٣]

وقال ابنُ تَيمِيَّةَ :اتَّفَق المُسلِمون على ما هو معلومٌ بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ: وهو أنَّه يجِبُ الإيمانُ بجَميعِ الأنبياءِ والمُرسَلين، وبجميعِ ما أنزله اللهُ مِنَ الكُتُبِ، فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ تُعلَمُ نُبُوَّتُه، مِثلُ: إبراهيمَ ولوطٍ وموسى وداودَ وسُلَيمانَ ويونُسَ وعيسى؛ فهو كافِرٌ عند جميعِ المُسلِمين، حُكْمُه حُكْمُ الكُفَّار[٤] .

ومن الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على وُجوبِ الإيمانِ بالرُّسُلِ:

زمن قسطنطين الأول باني الْقُسْطَنْطِينِيَّة وَأول من تنصر من مُلُوك الرّوم وَكَانَ على مَذْهَب أريوس. ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ،١/ ٤٧، الملل والنحل، الشهرستاني،٢/ ٣٢.

[١] الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، ابن العطار ، ص ٢١٧.

[٢] الشفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، دار الفيحاء – عمان، ط/٢، ١٤٠٧ هـ، ٢/ ٦٠٧، وينظر: الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، ابن العطار ،ص ٢٢٠.

[٣] الشفا بتعريف حقوق المصطفى،القاضي عياض ،٢/ ٦٠٨، الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، ابن العطار ،ص ٢٢٢

[٤] يُنظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ابن تيمية، ٢/ ٣٧١.

١. رُبُوبيَّتُه ورحمتُه تعالى تقتضيانِ إرسالَ رُسُلٍ منه إلى خَلْقِه لِيُعَرِّفوهم برَبِّهم، ويُرشِدوهم إلى ما فيه سعادتُهم في دُنياهم وأُخراهم.قال ﷻ:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [١] .

٢. خلْقُ اللهِ تعالى الخَلقَ لعبادتِه يقتضي اصطِفاءَ الرُّسُلِ وإرسالَهم؛ لِيُعَلِّموا العِبادَ كيف يَعبُدونَه تعالى ويُطيعونَه قال ﷻ ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[٢] .

كونُ الثَّوابِ والعِقابِ مُرَتَّبَينِ على آثارِ الطَّاعةِ والمعصيةِ في النَّفسِ بالتطهيرِ والتَّدسِيَةِ أمرٌ يقتضي إرسالَ الرُّسُلِ، وبَعثةَ الأنبياءِ؛ لِئلَّا يقولَ النَّاسُ يومَ القيامةِ: إنَّنا يا رَبَّنا لم نَعرِفْ وَجْهَ طاعتِك حتى نطيعَك، ولم نَعرِفْ وَجهَ مَعصِيَتِك حتى نتجَنَّبَها، ولا ظُلمَ اليومَ عندك، فلا تُعَذِّبْنا، فتكونُ لهم الحُجَّةُ على اللهِ تعالى؛ فكانت هذه حالًا اقتضت بَعثةَ الرُّسُلِ لِقَطعِ الحُجَّةِ على الخَلْقِ.

قال أبو عَمرٍو الدَّاني في اعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ: ومن قولهم: إن الله سبحانه قد احتج على عباده برسله، والسفراء بينه وبين خلقه، وقطع عذر العباد في الدلالة على صدقهم بما آتاهم من الآيات، وقاهر المعجزات، وتتابع الرسل، وأنزل عليهم الكتاب، وشرع الشرائع، وفرض الفرائض، وختم النبوة برسالة محمدﷺ أمينه وصفيه، خاتم النبيين كما قال ﷻ: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

---

[١] الإسراء: من الآية: ١٥.

[٢] الحج: ٧٥.

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [1] ، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [2] . وقال ﷻ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [3] [4].

وقال البَزْدَويُّ: (قال أهلُ التوحيدِ: إنَّ بَعْثَ الرُّسُلِ جائِزٌ عَقلًا، وقد بعث اللهُ تعالى الأنبياءَ والرُّسُلَ، والإقرارُ بهم واجِبٌ شَرعًا) [5].

والإيمان بالرسل يتضمن أمورا:

١. التصديق بنبوتهم صلوات الله وسلامة عليهم وبما جاءوا به من عند الله ﷻ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ ﴾ [6] .

٢. عدم التفريق بين أحد منهم كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [1] .

---

[1] النساء: ١٦٥.

[2] الإسراء: من الآية: ١٥.

[3] الأحزاب: ٤٠ .

[4] الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، تحقيق: دغش بن شبيب العجمي، دار الإمام أحمد – الكويت، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م، ص ٢٣٥.

[5] أصول الدين ، محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم، أَبو اليسر، صدر الإسلام البزدوي (المتوفى: ٤٩٣ هـ) تحقيق: د. هانز بيتر لنس، ضبطه وعلق عليه : د. أحمد حجازي السقا، المكتبة الازهرية للتراث، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م،ص ٩٥.

[6] الحديد:من الآية: ١٩ .

٣. توقيرهم وتعظيمهم: قال ﷻ: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظموه وَتُوَقِّرُوهُ مِنَ التَّوْقِيرِ وَهُوَ الِاحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ[٣] ، وعند المالكية من انتقص نبيا أو ملكا يقتل ولو تاب[٤] وأجمع العلماء على أن من انتقص نبيا من الأنبياء فقد كفر[٥].

٤. وجوب العمل بشرائعهم: وذلك في حق كل أمة لنبيها، ولا يخفى أن ذلك قبل بعثة نبينا ﷺالتي نسخت شريعته كل شريعة.

---

[١] البقرة: ٢٨٥.

[٢] الفتح: ٩.

[٣] تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير،٧/ ٣٠٥.

[٤] ينظر:الأجوبة الكافية عن الأسئلة الشامية، محمد بن يوسف بن محمد بن سعد الحيدري التونسي الكافي المالكي (المتوفى: ١٣٨٠هـ)، مطبعة السعادة بمصر، (د.ط،د.ت)ص ٨٦.

[٥] ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، دار الفيحاء – عمان، ط/٢، ١٤٠٧ هـ، ٢/ ٦٠٨، كفاية الأخيار في حل غاية الإختصار ، أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي (المتوفى: ٨٢٩هـ)، تحقيق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان، دار الخير – دمشق، ط/١، ١٩٩٤، ص ٤٩٣، منح الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله المالكي (المتوفى: ١٢٩٩هـ)، دار الفكر – بيروت،(د.ط) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ٩/ ٢٣١.

٥. اعتقاد عصمتهم في تبليغهم الوحي، و عصمتهم من الكبائر والصغائر التي تدل على خسة الطبع وسفول الهمة.

وتتلخص الحكمة في إرسال اللهﷻ رسله عليهم الصلاة والسلام إلى العباد في أمور:

الأول: إقامة الحجة على العباد، وتبشير المؤمنين بنعيم الله وجنته في الآخرة، وإنذار الكافرين من عذابه وعقابه، قال تعالى:﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [١] وقال رسول الله ﷺ (وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ)[٢]

---

[١] النساء: ١٦٥.

[٢] صحيح البخاري، تمام الحديث: عَنْ وَرَّادٍ، كَاتِبِ المُغِيرَةِ عَنِ المُغِيرَةِ، قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفَقَالَ: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الجَنَّةَ) كِتَابُ التَّوْحِيدِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (لاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ) وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ: (لاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ)، برقم(٧٤١٦)٩/ ١٢٣، ومسلم: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ انْقِضَاءِ عِدَّةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، وَغَيْرِهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، برقم(١٤٩٩)٢/ ١١٣٦، وبلفظ أخر: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ

الثاني: إقامة الدين وسياسة الدنيا به، فقد كان الأنبياء هم الساسة الذين يديرون شؤون البلاد والعباد، قال ﷺ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ)[1] ، وكذلك كان ﷺهو قائد الأمة وأميرها.

الثالث: توحيد الأمة دينيا وسياسيا، وذلك أن انقياد الأمة للرسل يجعلهم يدينون لهم بالطاعة ويتبعونهم فيما جاءوا به من الدين الحق، فتتحقق بذلك وحدتهم الدينية والسياسية.

الرابع: تحقيق القدوة والأسوة العملية، وهذه لها فوائد: الأولى: دحض حجة من قد يزعم أنه ليس في مقدوره تطبيق تلك الشرائع، فيقال له: إن الأنبياء وهم بشر أيضا، قد طبقوا تلك الشرائع ومارسوها عمليا، فكيف يصح القول بأن تطبيقها مما لا يستطاع !!

يمكن استجلاء دلالة السنن الإلهية على الركن الرابع من أركان الإيمان وهو الإيمان بالرسل من خلال عدة أمور:

الأول: أن الله ﷻ أجرى آيات الأنبياء الدالة على نبوتهم على خلاف عادة

أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ) كتاب التَّوْبَةِ، بَابُ غَيْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ، برقم(٢٧٦٠)٤/ ٢١١٤.

[1] متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ،برقم(٣٤٥٥)٤/ ١٦٩، ومسلم ، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ الْأَمْرِ بِالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، **برقم(١٨٤٢) ٣/ ١٤٧١. تمام الحديث** : عَنْ فُرَاتٍ القَزَّازِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَازِمٍ، قَالَ: قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِنِينَ، فَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ) قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: (فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ، أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ).

السنن الإلهية، ولما كان اطراد العادة حجةٌ كان تخلفها في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أمراً معجزاً[١] ولا ريب أن من شرط آيات الأنبياء عليهم السلام أن تكون خارقة للعادة وألا تكون معتادة للناس، وإن كان ليس دليل النبوة الوحيد[٢]

المعجزات التي يؤيّد الله بها أنبياءه خرق للسنن الكونية، لتكون حججاً لهم على العباد أنهم رسل الله، إذ إن السنن الكونية لا يخرقها إلّا الذي وضعها ورتبها وهو الله تعالى. فإذا جاء ذلك على يد من يدّعي على الله أن الله أرسله، كان بيّنة على صدقه، حين أجرى الله ذلك على يده، ولا يجريه على يد من يدّعي الرسالة كذباً عليه تعالى. ومن هنا فقد جاء أكثر رسل الله تعالى بمعجزات، أجريت على أيديهم، وشاهدها أقوامهم. كرّر الله تعالى ذكرها في كتابه، لتحصل الطمأنينة بصدقهم ويتم الانقياد لهم.[٣] .

ومما ورد في القرآن الكريم قوله ﷻ : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[٤]، فسنة الله الإلهية أن النار تحرق من أُلقي فيها أو مسها، وكانت نجاة

---

[١] ينظر: الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية، نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عيد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي (المتوفى ٧١٦ هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص٣٩٤.

[٢] ينظر: النبوات، ابن تيمية، ١/١٧٣.

[٣] ينظر: أَفْعَالُ الرَّسُول ﷺوَدَلَالَتَهَا عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، د. محمد بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي (المتوفى: ١٤٣٠هـ)، مؤسسة الرسالة للطباعه والنشر والتوزيع، بيرت – لبنان، ط/٦، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، ١/ ٢٥١.

[٤] الأنبياء: ٦٩.

إبراهيم عليه السلام جارية على خلاف السنن الإلهية، وهي آيةٌ دالةٌ على صدق نبوته عليه السلام، ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1] ، فسنة الله الإلهية أن الهرم والعقم مانعان من إنجاب الأولاد، ولهذا كانت ولادة يحيى بعد هرم والده زكريا وكون أمه عقيماً جارياً على خلاف السنن الإلهية، وكل واحد من الأمرين (الهرم والعقم) مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمعا[2] ، وهي آيةٌ دالة على نبوة زكريا عليه السلام قال ابن جزي: (تعجب واستبعاد أن يكون له ولد مع شيخوخته وعقم امرأته، فسأل ذلك أولا لعلمه بقدرة الله عليه، وتعجب منه لأنه نادر في العادة،)[3] .

ومن ذلك قوله جل جلاله: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[4] ، فالسنة الإلهية أن يولد الإنسان لأم وأب، فكانت ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أبٍ على خلاف عادة السنن الإلهية، وهي آيةٌ دالة على نبوة عيسى عليه السلام.

---

[1] آل عمران: ٤٠.

[2] ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ص ١٢٩.

[3] التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط/١٤١٦،١ هـ، ١/ ٤٧٨.

[4] آل عمران: ٤٧.

قال السمعاني: قَالَت ذَلِك تَعَجبا؛ إِذْ لم تكن جرت الْعَادة بِأَن يُولد ولد بِلَا أَب ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾،أي: لا يعسر عليه شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد [١] .

قال السعدي: (ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن)[٢] ومن ذلك قوله ﷻ :﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ [٣] فقد سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر ‘فالسنة الإلهية أن القمر يكون مكتملاً فشقه الله تعالى إلى فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال النبي ﷺ(اشهدوا) [٤].

وَقَدْ أَنْكَرَ جُمْهُورُ الْفَلَاسِفَةِ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مُتَمَسِّكِينَ بِأَنَّ الْآيَاتِ الْعُلْوِيَّةَ لَا يَتَهَيَّأُ فِيهَا الِانْخِرَاقُ وَالِالْتِئَامُ وَكَذَا قَالُوا فِي فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِنْكَارِهِمْ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَجَوَابُ

---

[١] تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، ط/١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ١/ ٣٢٠.

[٢] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،ص ١٣١.

[٣] القمر: ١.

[٤] سبق تخريجه ، ص٥٩.

هَؤُلَاءِ إِنْ كَانُوا كُفَّارًا أَنْ يُنَاظَرُوا أَوَّلًا عَلَى ثُبُوتِ دِينِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ يُشْرَكُوا مَعَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَتَى سَلَّمَ الْمُسْلِمُ بَعْضَ ذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ أُلْزِمَ التَّنَاقُضَ وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِنْكَارِ مَا ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الِانْخِرَاقِ وَالِالْتِئَامِ فِي الْقِيَامَةِ فَيَسْتَلْزِمُ جَوَازَ وُقُوعِ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ) [١] ، (وحجتهم على ذلك في غاية الضعف، وليس (مع القوم دليل واحد عقلي صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل) [٢] .

الثاني :أن من سنن الله تعالى الإلهية كشف وفضح من ادعى النبوة كاذباً، (فلا يوجد مدعي النبوة كذباً إلا ولا بد أن ينكشف ستره ويظهر أمره، والأنبياء الصادقون لا يزال يظهر صدقهم بل الذين يظهرون العلم ببعض الفنون والخبرة ببعض الصناعات والصلاح والدين والزهد لا بد أن يتميز هذا من هذا وينكشف، فالصادقون يدوم أمرهم، والكذابون ينقطع أمرهم، هذا أمر جرت به العادة وسنة الله التي لن تجد لها تبديلا)[٣].

---

[١] فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (المتوفى : ٨٥٢هـ) دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ٧/ ١٨٥.

[٢] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ابن تيمية، ١٨١/٦ وما بعدها.

[٣] شرح العقيدة الأصفهانية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية – بيروت، ط/١، ١٤٢٥هـ، ص٢٠٣.

(فقد دلَّ القرآن الكريم على أنه ﷻ لا يؤيد الكذاب عليه، بل لا بد أن يظهر كذبه، وأن ينتقم منه، فقال ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ ﴾[1] فقال ﷻ: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ ﴾[2] هذا بتقدير أن يتقول بعض الأقاويل، فكيف بمن يتقول الرسالة كلها)[3].

ولأن الكذب ليس من الأخلاق الحسنة التي جرت سنة الله تعالى على تخلق أنبياء الله ورسله بها، فقد علِم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه، وأيضا فالنبوة في الآدميين هي من عهد آدم عليه السلام فإنه كان نبيا وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار[4].

الثالث:أن من سنن الله تعالى الإلهية تواتر الرسل إلى الخلق فلا تخلو أمة من نبي أو رسول، قال ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[5] ، أى: متواترين واحدا

---

[1] الحاقة: ٣٨ – ٤٣.

[2] الحاقة: ٤٤ – ٤٧.

[3] النبوات، ابن تيمية، ٨٩٧/٢.

[4] شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية،ص١٤٢.

[5] المؤمنون: ٤٤.

بعد واحد[١] ،وقال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٢] ، وقال ﷻ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [٣] [٤]

الرابع :أن من سنن الله تعالى الإلهية في الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين أنه يبتليهم ليمحصهم لكن عاقبتهم إلى النصر والتمكين، قال ﷻ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [٥] وقال ﷻ : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[٦] ، وقال ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [٧] وقال ﷻ: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن

---

[١] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري ، ٣/ ١٨٨.

[٢] النحل: ٣٦.

[٣] فاطر: ٢٤.

[٤] ينظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية،١/٧٩.

[٥] البقرة: ١٥٥.

[٦] العنكبوت: ٢ – ٣.

[٧] يوسف: ١١٠ .

تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [1] .

وورد في الصحيحين قصة هرقل حينما سأل أبا سفيان عن قتالهم للنبي ﷺ فأجابه أبو سفيان قائلاً: (تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه (، فقال هرقل:) وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة) [2].

---

[1] فاطر: ٤٣.

[2] صحيح البخاري،، **تمامه:** عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ، مِنْ فِيهِ إِلَى فِيَّ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي المُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ، إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ، قَالَ: وَكَانَ دَحْيَةُ الكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ، قَالَ: فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللَّهِ، لَوْلاَ أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الكَذِبَ لَكَذَبْتُ، ثُمَّ قَالَ: لِتَرْجُمَانِهِ، سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ لاَ بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: تَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُ سِجَالًا يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ المُدَّةِ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ، ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي [ص:٣٦] سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ، فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لاَ يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، قُلْتُ: رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالعَفَافِ، قَالَ: إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهُ: (فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، ارْتَفَعَتِ

الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلاَحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ، قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِمْ، فَدَعَا بِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الَّذِي أَحْبَبْتُ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **برقم(٤٥٥٣)٦/ ٣٥، ومسلم ، بلفظ:** عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيهِ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّامِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺإِلَى هِرَقْلَ يَعْنِي عَظِيمَ الرُّومِ، قَالَ: وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى هِرَقْلَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ، فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللهِ، لَوْلَا مَخَافَةُ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيَّ الْكَذِبُ لَكَذَبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ، قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: وَمَنْ يَتَّبِعُهُ؟ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ، قَالَ:

فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ، فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَهُ سَخْطَةً لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَدْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ: لَو قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ، قَالَ: إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأَمَرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا، قَالَ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ

قال ابن تيمية: (فهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم، وأنهم لا يغدرون، علم أن هذا من علامات الرسل، فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر)[١]، (وأن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا على أعدائهم وينتقم منهم)[٢]، قال ﷻ: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾[٣] ومن سنن الابتلاء التي تقع على أنبياء الله ورسله أن قومهم يخرجونهم من بلادهم قال ﷻ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ٧٧ ﴾[٤] ،عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى﴿ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَلَمْ يَلْبَثُوا بَعْدَهُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَذَلِكَ كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الرُّسُلِ إِذَا فَعَلَ بِهِمْ قَوْمَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ[٥] .

خَرَجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺأَنَّهُ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ. كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، **برقم(١٧٧٣)٣/ ١٣٩٣.**

[١] شرح العقيدة الأصفهانية،ص١٤٥.

[٢] جامع الرسائل، ابن تيمية،١/٥١.

[٣] فاطر: من الآية: ٤٣.

[٤] الإسراء: ٧٦ – ٧٧.

[٥] ينظر:تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده ، دار الكتب العلمية

ورد في الصحيحين من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في قصة ذهاب النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل، وفيه قول ورقة:(يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ) فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ[1].

– بيروت، ط/١، ١٤١٩هـ، ٢/ ٣٠٧، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ١٥/ ١٩.

[1] **صحيح البخاري، بلفظ:** عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]– حَتَّى بَلَغَ ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ٥]) فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: (يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي) وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وَقَالَ: (قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ

ﷺ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ) فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ الأنعام: من الآية: ٩٦ (ضَوْءُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَضَوْءُ القَمَرِ بِاللَّيْلِ)، كِتَابُ التَّعْبِيرِ ،بَابُ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، **برقم(٦٩٨٢)٩/ ٢٩، ومسلم ، بلفظ:** حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺمِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ)، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ)، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ)، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ١ – ٥ ، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺتَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: (أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي) وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ

ومن سنة الله تعالى أن الرسل بعد إخراج قومهم لهم يقع على قومهم العذاب، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [١] قال البغوي: وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الرُّسُلِ إِذَا كَذَّبَتْهُمُ الْأُمَمُ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ مَا دَامَ نَبِيُّهُمْ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَإِذَا خَرَجَ نَبِيُّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ عَذَّبَهُمْ[٢].

الخامس: أن الله تعالى أجرى بعض كرامات أوليائه من الصالحين على خلاف عادة السنن الإلهية جزاءً لاتباعهم لأنبياء الله ﷻ ويجب التنبه أن خرق العادة في سنن الله ﷻ الإلهية لأولياء الله ﷻتعتبر من أدلة الكرامة، لكنه ليس الدليل الوحيد بل لابد من وجود الاستقامة على شرع الله تعالى لمن خرقت لأجله العادة، لأجل التمييز بين كرامات الأولياء وغيرها من الدجل

الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟) قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، برقم(١٦٠)١/ ١٣٩.

[١] الأنفال: ٣٣ .

[٢] معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، ٥/ ١١٣، وينظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ، ٢/ ١٢١، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١١/ ١٣٧.

الشيطاني وعمل السحرة[١] كما أن خرق السنن للأولياء لا يرقى إلى مثل خرقها للأنبياء.

ومما ورد في القرآن الكريم قوله ﷻ : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾[٢] فالسنة الإلهية أن هز جذع النخلة لا يمكن أن ينتج عنه سقوط الرطب، خاصة من امرأة في أضعف حالاتها بعد وضعها لمولودها، لكن الله تعالى خرق هذه الآية الإلهية كرامةً لمريم بنت عمران.

قال الشنقيطي: (وَالَّذِي يُفْهَمُ مِنْ سِيَاقِ الْقُرْآنِ: أَنَّ اللَّهَ أَنْبَتَ لَهَا ذَلِكَ الرُّطَبَ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ، وَأَجْرَى لَهَا ذَلِكَ النَّهْرَ عَلَى سَبِيلِ خَرْقِ الْعَادَةِ، وَلَمْ يَكُنِ الرُّطَبُ وَالنَّهْرُ مَوْجُودَيْنِ قَبْلَ ذَلِكَ، سَوَاءٌ قُلْنَا إِنَّ الْجِذْعَ كَانَ يَابِسًا أَوْ نَخْلَةً غَيْرَ مُثْمِرَةٍ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْبَتَ فِيهِ الثَّمَرَ وَجَعَلَهُ رُطَبًا جَنِيًّا، وَوَجْهُ دَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾[٣] ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَيْنَهَا إِنَّمَا تَقَرُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِالْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ)[٤] ومنه قوله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

---

[١] ينظر: جامع الرسائل، ابن تيمية ،١٢٦/٢.

[٢] مريم: ٢٣ – ٢٥.

[٣] مريم: من الآية: ٢٦.

[٤] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣/ ٣٩٧،

إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ
أَمَدٗا ﴿١٢﴾ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾
وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ
إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطٗا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ
عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا
يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم
مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت
تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ
وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ
فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ
كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ
وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ
يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم
بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾[1] ففي قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَبَقَاؤُهُمْ فِي النَّوْمِ أَحْيَاءً سَالِمِينَ عَنِ الْآفَاتِ مُدَّةَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ وَأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ يَعْصِمُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ ﴾﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ ﴾ جرى على خلاف السنن الإلهية، وهي كرامة عظيمة خص الله ﷻ بها أصحاب الكهف [2]

وقد أنكر المعتزلة جريان كرامات الأولياء على خلاف عادة السنن الكونية لاعتقادهم أن هذا خاص بالأنبياء[3] والذي عليه أهل السنة الإقرار

---

[1] الكهف : ٩ـ ٢٦.

[2] ينظر :مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ٢١/ ٤٣١ـ ٤٤٣.

[3] ينظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل ،القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (المتوفى:٤١٥هـ) تحقيق: الدكتور محمود محمد قاسم مراجعة الدكتور إبراهيم مدكور اشراف الدكتور طه حسين، دار الكتب

بكرامات الأولياء وبكونها تجرى على خلاف السنن الكونية كما تواترت بهذا الأخبار من الكتاب والسنة [١]وهي من دلائل النبوة؛ فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبي الصادق[٢]، وقد دُلَّ عَلَى جَوَازِ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْقُرْآنُ وَالْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ وَالْمَعْقُولُ[٣] .

المطلب الثالث: دلالة السنن الإلهية على الإيمان بالقدر:

ان عقيدة الايمان بالقضاء والقدر من أركان الايمان الستة التي لا يتم إيمان العبد إلا بهاكما في حديث جبريل عليه السلام في قوله ﷺ: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)[٤]، ومَذْهَب السّلف فِي مَسْأَلَة الْقَضَاء وَالْقدر وَهُوَ فِي حَقِيقَته يرجع إِلَى مَدْلُول الْكتاب وَالسّنة[٥].

اما تعريف القضاء والقدر لغة:

اولاً :القضاء في اللغة:

قال ابن فارس :(الْقَافُ وَالضَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ

العلمية، (د.ط)١٥،٢٠١١/٢١٧ـ ٢٣٥، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي، ٨/ ٢٠٩، جامع الرسائل، ابن تيمية، ٩٧/١، وله النبوات،٤٨٤/١.

[١] النبوات،١٣٣/١.

[٢] المصدر السابق، ٥٠١/١.

[٣] ينظر:مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ٢١/ ٤٣١.

[٤] سبق تخريجه،ص٩٢ وما بعدها.

[٥] ينظر: الإبانة الكبرى ، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ)، تحقيق: د. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض ، ط/١، ١٤١٥ هـ، ٣/ ٢١٧.

أَمْرٍ وَإِتْقَانِهِ وَإِنْفَاذِهِ لِجِهَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [1] أَيْ أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ)[2]، وقال ابن منظور:(يُقَالُ: قَضَى يَقْضِي قَضَاء فَهُوَ قاضٍ إِذا حَكَم وفَصَلَ. وقَضاء الشَّيْءِ: إِحْكامُه وإِمْضاؤُه وَالْفَرَاغُ مِنْهُ فَيَكُونُ بِمَعْنَى الخَلْق ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: القَضَاء فِي اللُّغَةِ عَلَى وُجُوهٍ مَرْجِعُهَا إِلى انْقِطَاعِ الشَّيْءِ وَتَمَامِهِ. وكلُّ مَا أُحْكِم عَمَلُهُ أَو أُتِمَّ أَو خُتِمَ أَو أُدِّيَ أَداء أَو أُوجِبَ أَو أُعْلِمَ أَو أُنْفِذَ أَو أُمْضِيَ فَقَدْ قُضِيَ. قَالَ: وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا فِي الْحَدِيثِ، وَمِنْهُ القَضاء الْمَقْرُونُ بالقَدَر، وَالْمُرَادُ بالقَدَر التَّقْدِيرُ، وبالقَضاء الخَلق كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾؛ أَي خَلَقَهُنَّ، فالقَضاء والقَدَرُ أَمران مُتَلازمان لَا يَنْفك أَحدهما عَنِ الْآخَرِ، لأَن أَحدهما بِمَنْزِلَةِ الأَساس وَهُوَ القَدر، وَالْآخَرُ بِمَنْزِلَةِ الْبِنَاءِ وَهُوَ القَضاء)[3].

ثانياً : القدر لغة:

قال ابن فارس: (الْقَافُ وَالدَّالُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وَكُنْهِهِ وَنِهَايَتِهِ. فَالْقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ. يُقَالُ: قَدْرُهُ كَذَا، أَيْ مَبْلَغُهُ. وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ. وَقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وَأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَقَدَّرْتُهُ أُقَدِّرُهُ. وَالْقَدْرُ: قَضَاءُ اللَّهِ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ عَلَى مَبَالِغِهَا وَنِهَايَاتِهَا الَّتِي أَرَادَهَا لَهَا)[4].

---

[1] فصلت: من الآية:١٢.

[2] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ٥/ ٩٩.

[3] لسان العرب، ١٥/ ١٨٦، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٧٨/٤

[4] معجم مقاييس اللغة،٦٢/٥.

وقال **ابن سيده:** (الْقدر: الْقَضَاء وَالْحكم. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [١] أَي الحكم. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[٢] ،[٣]

.

وقال ابن الأثير: القَدَر ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا قَضَاهُ اللَّهُ وحَكَم بِهِ مِنَ الْأُمُورِ. وَهُوَ مَصْدَرُ: قَدَرَ يَقْدِر قَدَراً. وَقَدْ تُسَكَّن دالُه[٤].

ثالثاً: القضاء والقدر شرعا

الإيمَانُ بِالْقَدَرِ فَرْضٌ لازِمٌ، وَهُوَ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٥] ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [٦] ، وَقَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [٧] .

فَالإيمَانُ وَالْكُفْرُ، وَالطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ، كُلُّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَرْضَى الإيمَانَ وَالطَّاعَةَ، وَوَعَدَ عَلَيْهِمَا الثَّوَابَ، وَلا يَرْضَى الْكُفْرَ

---

[١] القدر: ١

[٢] الدخان: ٤.

[٣] المحكم والمحيط الأعظم،: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى:: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م، ٦/ ٣٠٠.

[٤] النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤/ ٢٢.

[٥] الصافات: ٩٦.

[٦] الرعد: من الآية: ١٦.

[٧] القمر: ٤٩.

وَالْمَعْصِيَةَ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِمَا الْعِقَابَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [1] ،[2] .

قال الإمام ابن أبي زيد القيرواني (والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره وكل ذلك قد قدره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [3] ، ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى ﴾[4] فيخذله بعدله ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[5]فيوفقه بفضله فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم)[6] .

ويقول الإمام الطحاوي : ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ إليه يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ،﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

[1] إبراهيم: ٢٧.

[2] شرح السنة، البغوي ، ١/ ١٤٢.

[3] الملك: ١٤.

[4] النحل: من الآية: ٩٣.

[5] النحل: من الآية: ٩٣.

[6] الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، صالح بن عبد السميع الآبي الأزهري (المتوفى: ١٣٣٥هـ)، المكتبة الثقافية – بيروت، ص ١٢ وما بعدها.

ٱلْبَصِيرُ ﴾ [١] ، خلق الخلق بعلمه، وقَّدر لهم أقداراً، وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله.[٢]

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم به في الأزل على وفق الأمر المقضي السابق ، والقدر وقوع الخلق على وفق الأمر المقضي السابق ، يقول ابن حجر العسقلاني:(قال العلماء الْقَضَاءُ هُوَ الْحُكْمُ الْكُلِّيُّ الْإِجْمَالِيُّ فِي الْأَزَلِ وَالْقَدَرُ جُزْئِيَّاتُ ذَلِكَ الْحُكْمِ وَتَفَاصِيلُهُ[٣] . وقال في موضع آخر: (الْقَضَاءُ الْحُكْمُ بِالْكُلِّيَّاتِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ فِي الْأَزَلِ وَالْقَدَرُ الْحُكْمُ بِوُقُوعِ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي لِتِلْكَ الْكُلِّيَّاتِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ) [٤] .

والقول الثاني : فإن القدر اسم لما صار مقدرًا، والقضاء: إيجاده.

قال ابن بطال: (القضاء هو المقضي)[٥]

---

[١] الشورى: من الآية: ١١ .

[٢] ينظر:شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ، ص ٩٣ وما بعدها.

[٣] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١/ ٤٧٧.

[٤] المصدر السابق، ١١/ ١٤٩.

[٥] المصدر السابق ، نفسه.

وقال الخطابي: والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر وأما القضاء فهو الخلق كقوله ﷻ: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ ﴾ [١] وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٢]، [٣] ، قدَّره وأراد خلقه، وهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا قَضَاهُ اللَّهُ وَبَرَأَهُ[٤].

يمكن استجلاء دلالة السنن الإلهية على الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر من خلال أمرين:

الأول: أن كون سنن الله ﷻ لا تتبدل ولا تتحول دليلٌ على كون أفعال ﷻ جارية وفق الحكمة والعدل. فقوله ﷻ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [٥]، وقوله ﷻ: ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ

---

[١] فصلت: من الآية: ١٢.

[٢] البقرة: من الآية: ١١٧.

[٣] ينظر: معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية – حلب، ط/١، ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م، ٤/ ٣٢٢ وما بعدها.

[٤] ينظر :تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (المتوفى: ٣١٠هـ) ٤٦٩/٢، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم ، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ، ص ١٢٨.

[٥] الأحزاب: ٦٢.

لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [1] دليلٌ على أن هذا من مقتضى حكمته وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجِد هذا الوصف بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أُحدٍ فإن الذنب كان لهم [2].

قال ابن القيم:(والقرآن مملوء من هذا يخبر تعالى أن حكْم الشيء في حكمته وعدله حكْم نظيره ومماثله وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتاباً مفرداً[3]

لذا فجمهور المسلمين من السلف والخلف على القول بتعليل أفعال الله تعالى بالحكمة[4].

ولا يشكل على هذا خرق أو نقض السنن الكونية أحياناً، فسنة الشرعية الدينية لا تنتقض بحال ومن معانيها التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين وهي الواردة في قوله سبحانه :﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ

---

[1] فاطر: ٤٣.

[2] جامع الرسائل،ابن تيمية،١/ ٥٤، وينظرله: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٤١٩/٦.

[3] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ،ص١٩٩ وما بعدها.

[4] ينظر : مجموع الفتاوى، ابن تيمية، وله منهاج السنة النبوية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط/١،(د.ت)، ١/ ٤٥٥.

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [1]،وقوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ﴾ [2]، [3]

(وكل ما يظن أنه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات فعادته وسنته لا تتبدل؛ إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل هذا قول الجمهور، وأما من لا يثبت سبباً ولا حكمة ولا عدلاً فإنهم يقولون: إنه يخرق عادات لا لسبب ولا لحكمة، ويُجوزون أن يقلب الجبل ياقوتاً والبحر لبناً والحجارة آدميين ونحو ذلك مع بقاء العالم على حاله، ثم يقولون مع هذا: ولكن نعلم بالضرورة أنه لم يفعل ذلك)[4]

الثاني: أن سنن الله ﷻ قائمة على ربط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتائج، ففيها اعتبار للأسباب التي جعلها الله ﷻ أسباباً يحصل عندها المطلوب، ولهذا أمثلة كثيرة منها:

١. أن الإيمان بالله وطاعته ﷻ سبب للبركة والنصر والتمكين، وأن الكفر به ومعصيته سبب للعذاب والعقاب من الله ﷻ، قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ

---

[1] الأحزاب: ٦٢.

[2] فاطر: من الآية: ٤٣.

[3] ينظر: النبوات ٢/ ٨٦٧ ،والرد على المنطقيين ،ص٣٩٠.

[4] ينظر: النبوات ٢/ ٨٦٩ وما بعدها.

يَكْسِبُونَ ﴾[1] ، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[2].

٢. أن تقوى الله تعالى سبب للفرج والرزق وتيسير الأمور، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾[3] ،وقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾[4]

٣. أن دعاء الله ﷻ سبب لحصول المطلوب، قال تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[5] ، (فالدعاء في اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات[6] ، وربط السبب بالمسبب يسمى الوجوب العقلي الوجودي القدري، (فإن المسببات يجب وجودها عند وجود أسبابها، بمعنى أن الله يحدثها حينئذ ويشاء وجودها لا بمعنى أنه أمر بها شرعاً وديناً... بمعنى أن الله لا يحدث المسببات ويشاؤها إلا بوجود الأسباب)[

---

[1] الأعراف: ٩٦.

[2] الكهف: ٥٩.

[3] الطلاق: من الآية:٢ – ٣ .

[4] الطلاق: من الآية: ٤.

[5] غافر: ٦٠ .

[6] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/ ١٩٢.

[1] .

وهذا لا يعني أنها لازمة فقد يتخلف الأثر وتُخرق السنن بأمره سبحانه، لا معقب لحكمه﴿ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ ﴾ [2] ، ولا راد لأمره.

الفصل الثالث

أثر فقه السنن الإلهية في الحياة الدنيا

إن فقه السنن الإلهية غاية في الأهمية، له أثر بالغ وكبير سواء على مستوى حياة الأفراد أو الجماعات والأمم، وله دور عظيم كبير في فهم مقاصد وغايات حياة الإنسان على هذه المعمورة، وله الفضل الواسع في تجلية حقيقة مفهوم الأمانة الكبرى، أمانة الاستخلاف وهذا الفقه لا يُنال، و لا يُبلغ إلا بالرجوع إلى كتاب اللهﷻ، وتدبره حق التدبر، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [3] وبتدبر القرآن يصل الإنسان إلى فقه سنن ترشده إلى معرفة الغاية من الحياة؛ ذلك أن كتاب اللهﷻ يتحدث في نصوص كثيرة عن حياة الإنسان في مختلف أطوارها وباختلاف نظرة الناس لها. قال الطبري: (لِيَتَدَبَّرُوا حُجَجِ اللَّهِ الَّتِي فِيهِ، وَمَا شَرَعَ فِيهِ مِنْ شَرَائِعِهِ،

---

[1] الفتاوى الكبرى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٨ .

[2] الرعد: من الآية: ٤١.

[3] ص: ٢٩.

فَيَتَّعِظُوا وَيَعْمَلُوا بِهِ) [١] . (إن القرآن الكريم يدعو الناس ويرشدهم إلى معرفة الغاية من حياتهم سواء كانت حياة فرد أم أسرة، حياة مجتمع أم دولة، أم حياة الإنسانية كلها)[٢] ، إن تدبر السنن الإلهية في القرآن الكريم غاية في الأهمية، له أثر كبير في حياة الفرد والأمة، وله دور عظيم في تجلية معالم الماضي والحاضر والمستقبل[٣]، وبتدبر كتاب الله يستطيع الإنسان استنباط سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، والتي بدورها إذا تدبرها وفقهها الإنسان، جعلها منهجا وخطة يسير وفقها ليحقق وجوده ويجعل لحياته قصدا أصيلا.

المبحث الأول
السنن الإلهية ومدى ارتباطها في الحياة الدنيا

إن هذا الكون ليزخر بسنن الله الجارية التي تحكم نظام الحياة الدنيا بمن فيها وما فيها، والتي يخضع لها الناس، وهي مرتبطة بوجودهم ارتباطاً كليّا .

المطلب الأول: ارتباط السنن الكونية بحياة الناس

يمكن تعريف السنن الكونية بأنها: (مجموعة القوانين التي يسير وفقها الكون، والتي يستفيد منها الكائن الحي بما يؤهله، فيسخرها له ويستفيد منها، أنها نظم الكون المفتوح بما فيه ومن فيه المسيرة له، وفق ما أراد الله ﷻ،

---

[١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن،٢٠/ ٧٩.

[٢] الحياة في القرآن الكريم، احزمي سامعون، دار طويق للنشر والتوزيع ، الرياض، ط/١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ٣/٩٦١.

[٣] ينظر: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، رشيد كهوس، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط/١، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م، ص٧.

مجالها الواسع السموات والأرض وما بينهما وما فيها[١]

والقرآن الكريم زاخر بالسنن الكونية المرتبطة ارتباطاً وثيقا بحياة الناس ومنها:

١. سنة الله في اختلاف الليل والنهار:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢] .

يشير الأشعري إلى بعض مظاهر عظمة الله في الكون ومنها الليل الذي تستريح فيه العوالم من كد السعي والتعب، ففيه تأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطيور إلى أوكارها، وتهدأ به نفوس وأجساد البشر كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[٣] . وكما جعل الليل راحة وسكوناً، جعل النهار حركة وانتشاراً لطلب المعاش وقضاء المصالح قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[٤] [١] .

---

[١] ينظر: السنن الربانية في التصور الإسلامي، راشد سعيد شهوان، الأكاديميون للنشر والتوزيع عمان ، الأردن، (د.ط)، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، ٨٧/١.

[٢] البقرة: ١٦٤.

[٣] الفرقان: من الآية:٤٧.

[٤] النبأ: ١١.

يقول سيد قطب: (وتنمو معارف البشر، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية... فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء؛ ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسي لوجود الحياة وبقاء الأحياء؛ وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شيء على هذه الأرض، وبخاصة تلك الحياة الإنسانية[٢] .حيث ويفقه الإنسان لهذه السنة الكونية يشعر بمدى ارتباطها بحياته، وصلاح معاشه، ويدرك تماما قدرة الخالق وإبداعه في خلق هذا الكون، فيتحرك وجدانه وحسه وتستيقظ فيه مشاعر الحب، والقرب من المنعم الذي علم ضعفه، وحاجته للراحة والسكينة في ظلمة الليل الدامس، فجعلها سنة كونية خادمة لهذا المخلوق الضعيف، سخرها له؛ وبذلك يعي جيدا حقيقة ما خلق لأجله وهي مهمة وأمانة الاستخلاف والعمران، فيسعى مجدا مخلصا في الاضطلاع بوظيفته في ظل عبوديته قال ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣] مع يقينه بأن الإسلام دين و شريعة للحياة البشرية هو جزء لا يتجزؤ من الناموس الكوني. "والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير... وبذلك لا يخضع

---

[١] رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،(د.ط)، ١٤١٣هـ ، ٨٨.

[٢] ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٤٧٥/١٨ .

[٣] الذاريات: ٥٦.

نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل... وإنما يخضع للحق الكلي، ولتدبير صاحب التدبير[1]

ومتى يؤمن بأن هذه السنن الكونية التي تحكم الليل والنهار مرتبطة بأساسيات حياته من رزق، وكد وسعي وخير ومصلحة، سعى إلى البحث عنها واكتشافها، ومن ثمة فقهها ومحاولة تدبرها ليسعد في حياته، وأن هذا النظام السنني ثابت لا يتغير، حقيق لا يمضي شيء منه جزافا، أو باطلا، يطمئن، ويخضع في تذلّل وانكسار واستسلام لخالق هذه السنن وموجدها ﷻ.

أَفَلَا تَرَوْنَ بِأَبْصَارِكُمُ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ، وَحُجَّةً مِنْهُ عَلَيْكُمْ، فَتَعَلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، وَلِمَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي خَالَفَ بِهَا بَيْنَ ذَلِكَ.

يقول الطبري في قوله تَعَالَى ذِكْرُهُ: (الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾[3] يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[4] أَيُّهَا الْقَوْمُ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

---

[1] ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٨/٢٤٧٦.

[2] القصص: ٧٢.

[3] البقرة: من الآية: ٨٠.

[4] الأنعام: من الآية: ٤٦.

يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [١] دَائِمًا لَا لَيْلَ مَعَهُ أَبَدًا ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[٢] مِنْ مَعْبُودٍ غَيْرِ الْمَعْبُودِ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ فَتَسْتَقِرُّونَ وَتَهْدَءُونَ فِيهِ. ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يَقُولُ: أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم؛ رحمة من الله لكم، وحجة منه عليكم، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره، ولمن له القدرة التي خالف بها بين ذلك)[٣]

ومن فوائد ومنافع اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما اختلاف الفصول، ومعرفة الأوقات والآجال، التي لا تستقيم حياة الناس لولا معرفتها، وتنظيم معاشهم وأعيادهم وأسفارهم وعبادتهم، وحمل المرأة ووضعها، وجل معاملاتهم قائمة عليها؛ ويبين ابن كثير في تفسيره منافع تعاقب الليل والنهار، فيقول: (يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ، فَمِنْهَا مُخَالَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِيَسْكُنُوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمَعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَيَعْرِفُوا مُضِيَّ الْآجَالِ الْمَضْرُوبَةِ لِلدُّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) [٤]

اماعن الجانب الوجداني لمنافع وفوائد تدابر وتعاقب الليل والنهار، وتعلقه بحس ومشاعر الإنسان المفطور على حب الجمال، وعشق المنظر الحسن، فلا يخفى على أحد روعة وجمال الليل، فقد تغنى به الشعراء والأدباء قديما

---

[١] القصص: ٧٢.

[٢] القصص: ٧١.

[٣] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨/ ٣٠٥.

[٤] تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤٦.

وحديثا، ولا ينكر أحد بهاء الضياء وأشعته الدافئة.

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب! فكيف بهم لو فقدوا الضياء. ولو دام عليهم الليل... وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار، لو لم يطلع عليها النهار... ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة، وما دبره لكم واختاره من توالي الليل والنهار، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة)[١].

إن السنة الكونية التي تحكم الليل والنهار، ترتبط بها حياة الناس ومعايشهم وأرزاقهم وبها تبرز نعم الله ورحمته بعباده.

المطلب الثاني: ارتباط السلوك الإنساني بالأحداث الكونية

تحكم نظام الدنيا ونراها منتشرة في الكون وفي الحياة، وفي سلوك الإنسان على السواء[٢] .

ولقد سبق وأن بيَّنا العلاقة الوثيقة بين السنن الكونية وحياة الإنسان، ولا شك أن هذه السنن تحكم سلوك الإنسان كما تحكم الخلق والكون على سواء.

أولاً : ارتباط الطاعة بالأحداث الكونية الاستغفار والتوبة :

قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾[٣] قال أهل التفسير في

---

[١] ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب،٢٠/٢٧٠٨.

[٢] ينظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط، مجدي محمد محمد عاشور، دار السلام، القاهرة،ط/٢، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ص٣٧.

[٣] هود: ٥٢.

تفسير هذه الآية الكريمة: يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1] وَلقد أَرْسَلْنَا إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً آمِرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شريك له ناهيا لهم عن الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا وَاخْتَلَقُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أُجْرَةً عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللَّهِ إِنَّمَا يَبْغِي ثوابه مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَنْ يدعوكم إلى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةٍ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَكْفِيرُ الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال:﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[2] [3] وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنِ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[4] .

---

[1] هود: ٥٠ – ٥٢.

[2] هود: ٥٢، ونوح: ١١.

[3] تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ، ٤/ ٢٨٤ وما بعدها.، وينظر:تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٢/ ٤٤٤ وما بعدها.

[4] مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون،إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، ،

ومما تقدم يتبين ان هناك ارتباط تام بين الأعمال الإنسانية و بين الأحداث الكونية التي تمسه فالأعمال الصالحة توجب فيضان الخيرات ونزول البركات،

برقم(٢٢٣) ٤٤/ ١٠٤، سنن ابن ماجه ، ابن ماجة – وماجة اسم أبيه يزيد – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)
تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط/١، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م، ، أَبْوَابُ الْأَدَبِ، بَابُ الِاسْتِغْفَارِ، برقم(٣٨١٨) ٤/ ٧٢١ ، سنن أبي داود، أبواب فضائل القرآن، باب في الاستغفار، برقم(١٥١٨)٢/ ٦٢٨، عمل اليوم والليلة، ابو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط/٢، ١٤٠٦، برقم(٤٥٤) ص ٣٣٠، السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط،قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط/١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، ، الْإِكْثَارُ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، ثَوَابُ ذَلِكَ ،برقم(١٠٢١٧) ٩/ ١٧١، عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد، حمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بـ «ابن السُّنِّي» (المتوفى: ٣٦٤هـ)، تحقيق: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن – جدة / بيروت(د.ط،د.ت) ، بَابُ ثَوَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ برقم(٣٦٤) ص ٣٢٣ ، المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤١١ – ١٩٩٠ ، كِتَابُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ،برقم(٧٦٧٧) ٤/ ٢٩١، وقال :(هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ) .

والأعمال الطالحة تستدعي تتابع البلايا والمحن، وتجلب النقمة والشقوة والهلكة، ونبي الله هود عليه السلام يرشد قومه وهو مشفق عليهم من عاقبة الشرك والمعاصي بأن يطلبوا المغفرة، ويسرعوا إلى التوبة، لأن سنن الله جارية فيهم، كما مضت في من كان قبلهم، فقوم نبي الله نوح عليه السلام عبرة وموعظة لهم وقصتهم مع الطوفان معروفة وقريبة منهم (وقدم قصة عاد على ما بعدها لأَنها أقربها إلى قوم نوح، وعاد هذه هي عاد الأُولى) [١].

هذه السنن المتعلقة بسلوك الإنسان ذات العلاقة السببية، فتقديم الإيمان والتوبة سبب لإرسال المطر، والغيث، وإحياء الأرض الميتة من جراء القحط والجذب. (بتوفير الأَسباب المؤدية إِلى ذلك من الزرع والضرع والصناعة، والحصون والبروج وغير ذلك، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زرع وضرع ومصانع وحصون وقصور)[٢]، وهكذا يكون الجزاء بإنزال المطر مقابل الأمر بالاستغفار والتوبة، وتكون الطاعة سببا لسعة الرزق وزيادة القوة، وهما لا شك من أسباب الحياة الطيبة، التي تعتبر مطلب كل إنسان سوي السلوك.

يقول سيد قطب: (وننظر في هذا الوعد وهو يتعلق بإدرار المطر، ومضاعفة القوة، وهب أمورا تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام

---

[١] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط/١، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م – ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م،٤/ ٢٠٥.

[٢] المرجع السابق ، ٤/٢٠٧.

الوجود، ومن صنع الله ومشيئته)[١]

وربّ قائل يقول وما علاقة الاستغفار والتوبة، وحتى الإيمان، بإدرار الغيث وإرسال المطر ومنح القوة والبأس الشديد، فيرد سيد قطب على هذه الشبهة قائلاً: (فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور، بل واقع مشهود، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة.

يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن؛ ويزيدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارا كراما... كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية... ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله في قلوبهم ولا في مجتمعهم، ولكنها قوة إلى حين. حتى تنتهي الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة اللهﷻ... فأما إرسال المطر. مدرارا فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني. ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محييا في مكان وزمان، ومدمرا في مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدرالله ﷻ أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن ينفذ اللهﷻ

تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية)[٢]

لما كانت الذنوب والمعاصي أسقاما وشدائد ومصائب؛ كان الاستغفار

---

[١] في ظلال القرآن، سيد قطب،١٢/١٨٩٧.

[٢] في ظلال القرآن، سيد قطب،١٢/١٨٩٧وما بعدها.

والتوبة دواء وتيسيرا وسببا لتنزل الخيرات والبركات والرحمات، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾[1] .

قال ابن كثير :(وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يوما: سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد نافع له، وإن كاد دنسا فالصابون والماء الجاري أنفع له فقال: كيف والثياب لا تزال دنسة؟)[2]، وهذا يعني إذا كانت المعاصي فالاستغفار هنا بالنسبة للعبد مقدم والجمع بينهما خير .

(إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين... والحق في الجزاء على الخير والشر في الدنيا والآخرة) [3].

وهي نفس الحقيقة والعلاقة التي تربط بين سنن اللهﷻ في كونه وبين سلوك الإنسان وأفعاله وتصرفاته، والتي توضح أن سنن اللهﷻ في كونه وخلقه على السواء تقوم على مبدإ السببية، فمتى ارتبطت أفعال الإنسان وسلوكه بالطاعة كان الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

ثانياً :الإيمان والتقوى سبب لفتح بركات السماء والأرض :

---

[1] نوح: ١٠ – ١١.

[2] تفسير القرآن العظيم، : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/٢، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، ٦/ ٤٣٣.

[3] المهذب في تفسير سورة الملك، علي بن نايف الشحود،بهانج دار المعور،ط/١، (د.ت) ١٤٨/١.

قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [1] لما كانت التقوى من أعظم الفضائل التي ذكرها القرآن، والتي تسعد صاحبها في الدنيا والآخرة، ولهذا اقترن ذكرها بمعان إيمانية سامية[2] قال القرطبي: (الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى كَانَ عَامًّا لِجَمِيعِ الْأُمَمِ)[3] ومن ثمرات التقوى والإيمان منح البركات، وفتح أبواب الخيرات من السماء والأرض على السواء، وهذا وعد الحق الذي، لا يخلف وعده، ولكن هذا الوعد جاء مشروطا بأمرين متلازمين (الإيمان والتقوى)، وهذا الوعد الحق مضت به سنة اللهﷻ في الأمم والجماعات القائمة على ارتباط النتائج بالمقدمات ، فالخطاب عام لكل القرى والأمم والجماعات متى قدموا الإيمان والتقوى كشرط أولي جاءت الخيرات والبركات، وفاضت أعين الأرض والسماء بمختلف النعم التي فطر الإنسان على الفرح والسعادة بها، والسعي للفوز بها، والمحققة للحياة الطيبة. والمنهج القرآني يكثر من الربط بين السنن الكونية وبين حياة الإنسان،وعبوديته لربه، وهي دعوة الإنسان إلى النظر والتدبر، والاعتبار بسنن اللهﷻ في خلقه وكونه، فهي تجري بالعدل في حياة الناس.

يقول سيد قطب في بيان هذه السنة ومدى ارتباطها بسلوك الإنسان

---

[1] الأعراف: ٩٦.

[2] ينظر : سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط/١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م،ص٣٩٤ ومابعدها.

[3] الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ٥/ ٤٠٨.

فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية. فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار؛ لفتح الله عليهم... بركات... مفتوحة بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم. والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات... إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة.. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن[١].

فهذه سنة اللهﷻ في ابتلاء عباده المؤمنين المتقين بالنعماء، والبركات، كما يبتلى بالضراء القوم المكذبين فسنة الله ﷻلا تتخلف، ومشيئته لا تتوقف، ووعده لا يخلف، وهذه آية أخرى من كتاب الله العزيز تقرر حقيقة مطلقة في ارتباط السلوك الإنساني والمتمثل في الطاعة بالأحداث الكونية، وسنن اللهﷻ المتعلقة بسعة الرزق وحصول الطيبات في الحياة.

فدعوة القرآن هاهنا بيّنة جلية تتلخص في ضرورة الإيمان، والاعتبار بالسنن كمقدمة لحصول النتيجة المنطقية، ألا وهي إغداق النعم (بَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِمَا دَعَا اللهُ إِلَيْهِ، وَالتَّقْوَى فِي الْعَمَلِ بِشَرْعِهِ فِعْلًا وَتَرَكًا، سَبَبٌ اجْتِمَاعِيٌّ طَبِيعِيٌّ لِسَعَةِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا عَلَى الْأُمَّةِ)[٢]

والخلاصة أن السنن الإلهية الكونية ليست بمعزل عن واقع حياة الناس واجتماعهم وتاريخهم، وإن الطاعة سبب رئيس، ومن أكبر المؤهلات للفوز

---

[١] ينظر : في ظلال القرآن، سيد قطب،١٣٣٧/٩ وما بعدها.

[٢] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا،٩/ ٤٨٠.

بالحياة الطيبة.

ثالثاً : ارتباط المعصية بالأحداث الكونية.

قال ﷻ: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ ﴾ [1] .

وتمضي سنة الله ﷻ الجارية في أخذ المكذبين بالضراء قبل الهلاك، وعذاب الاستئصال والإبادة، فيبدأ الأخذ بأنواع الابتلاءات المختلفة كالمجاعات والجوائح، والأمراض والزلازل، فهذه سنته الجارية في تعذيبهم بأنواع البلاء دون الاستئصال والدمار الأخير، وهكذا تكون سنة الله ﷻ في القوم المجرمين والمنحرفين سببا في إهلاك الأمم؛ والقرآن الكريم عرض الكثير من قصص القرون الماضية، وأخبار الأمم الغابرة، للاتعاظ بأحوالهم، والاعتبار بعاقبتهم. ولحصول العبرة والموعظة نذكر بعض أنواع العذاب الذي كان سببا في هلاك الأمم والأقوام الغابرة.

رابعاً: الاستكبار والإجرام سبب لوقوع الرجز

الرِّجْزُ: العذاب والعقوبة وَالْعَمَلُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلى الْعَذَابِ، وكل مَا فِي الْقُرْآن من الرجز فَهُوَ الْعَذَاب وَأما ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾[2] ، بِالضَّمِّ، فَالْمُرَاد الصَّنَم[1]

---

[1] الأعراف: ١٣٣ – ١٣٤.

[2] المدثر: ٥ .

ما ذكر الرجز في القرآن الكريم إلا كان خاصا بالعذاب والعقاب، وبين محمد رشيد رضا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الرِّجْزِ جِنْسُهُ، وَهُوَ كُلُّ عَذَابٍ تَضْطَرِبُ لَهُ الْقُلُوبُ أَوْ يَضْطَرِبُ لَهُ النَّاسُ فِي شُئُونِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ نِقْمَةٍ وَجَائِحَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ كَالْخَمْسِ الْمُبَيَّنَةِ[٢] في قوله تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

ومن سنة الله تعالى الكونية التي يسلكها مع عباده الظالمين، المتجبرين أنه يذيقهم أنواعا من العذاب، والنكال والنقمات قبل الهلاك التام، وفي هذا إنذار لهم شديد بإمكانية حلول الاستئصال والدمار العظيم الذي يأتي على إبادتهم، وهو نوع من الإمهال مع معاينة جزء من العذاب المهين، فإن عادوا على ما كانوا عليه من التكذيب والإعراض عن اتباع هدى الأنبياء والرسل، كشف عنهم العذاب، واستبدله بالنعم والبركات، وإن عاندوا واستمروا على غيهم وتكذيبهم وظلمهم سلط عليهم بعد ذلك ألوانا مختلفة ومتنوعة من عذاب الاستئصال والدمار والهلاك التام ويستبدل بهم قوما آخرين، قال ﷻ : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾[٣]

---

[١] ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، ١/١٤٥، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، ٣/٥٢٥، لسان العرب، ابن منظور ،٦/ ٩٥، الكليات ، الكفوي، ص ٤٦٤، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء٣/ ١٤٩٩.

[٢] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ٩/ ٨٢.

[٣] النساء: ١٣٣.

وقال ﷻ: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [1] .

لقد عاقب اللهﷻ فرعون وقومه لكفرهم وطغيانهم بعقوبات كثيرة: فقد إفاضة الماء الكثير وتسليطه عليهم حتى أَحاط بهم وملأَ بيوتهم وغطَّى أَرضهم وزرعهم. فأَتلف الزروع ومنع الناس من حرث الأَرض والسير في الطرق لقضاءِ حوائجهم وتدبير شئون حياتهم، وسلط عليهم الجراد الذي أَكل الزرع والغرس والثمار، وأَلحق بأَبواب بيوتهم وسقوفها التلف والدمار، وأَرسل عليهم الْقمَّلَ فملأَ ثيابهم وأَجسامهم وشعورهم وعيونهم – وهو الْقَمْل المعروف ، وكذلك أَرسل عليهم الضفادع فملأَت المنازل والمضاجع والأَطعمة – والأَشربة حتى أَقلقتهم وصاروا لا يطيقون الحياة معها، وأَيضًا أَصابهم الدم الذي اختلط بالماءِ فصاروا لا يستسيغون شربه، أَو ابتلاهم بالرعاف، وكانت هذه الآيات مفصلات، أَي بيّنات واضحات الدلالة على أَنها عقوبات لهم على كفرهم وبغيهم لا يشتبه في ذلك عاقل، وقيل: إن تفصيلها هو تفريقها في أَزمان مختلفة، لامتحان أَحوالهم.﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[2] ، أَي: فاستكبر هؤلاءِ الطغاة عن الإيمان بموجب آيات الله ﷻوصاروا باستكبارهم قومًا مبالغين في الكفر والعدوان ومصرّين عليهما ،﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

---

[1] الأنعام: ١٣٣.

[2] الأعراف: من الآية:١٣٣

مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [1] ، أَي ولما نزل بفرعون وقومه العذاب الشديد لجأُوا إِلى موسى يطلبون منه أَن يدعو لهم، ويتوسلون إِليه بالنبوة التي هي عهد الله عنده، أَو يطلبون منه الدعاءَ المستجاب الذي هو عهد الله عنده، ووعدوه إِن دعا لهم أَن يؤمنوا به، ويرسلوا معه بنى إِسرائيل، ليذهبوا معه حيث شاء.

ثم بيّن القرآن الكريم أَنهم لم يوفُوا بعهدهم ولم يَبَرُّوا بقسمهم بعد أَن كشف الله عنهم ما نزل بهم من ضر، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾[2] أَي فلما كشفنا عنهم ما نزل بهم من العذاب ورفعنا عنهم الضرَّ ورحمناهم بذلك إِجابة لدعاءِ موسى عليه السلام ونجيناهم إِلى وقت محدودٍ هم واصلون إِليه يعذبون بعده بأَنواع المصائب، ثم يهلكون إِن لم يؤمنوا وفاءً بعهدهم لموسى فلما كشفنا عنهم العذاب المذكور، إِذا هم يسارعون إِلى نقض العهد الذي وثقوه على أَنفسهم بالقسم حين قالوا لموسى عليه السلام:﴿ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ ﴾ إِذا هم ينقضون العهد – ويعودون إِلى اللجاج فيما كانوا فيه من التكذيب والطغيان من غير تدبر ولا تفكير. ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [3] أَي فعاقبناهم بسبب نقض العهد وعودهم إِلى تكذيب الآيات وارتكاب المعاصي والآثام، وكان هذا الانتقام هو إِغراقهم في البحر بإِطباقه عليهم حين

---

[1] الأعراف: ١٣٤.

[2] الأعراف: ١٣٥.

[3] الأعراف: ١٣٦.

أَرادوا اللحاق بموسىعليه السلام وهو يعبره بقومه إِلى سيناءَ بعد أن انشق له بضربة من عصاه، ثم صرح القرآن بسبب إِغراقهم في قوله تعالى:﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ ، أَي كان إِغراق اللهعزوجل لهم في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله نعالى التي ساقها إِليهم مفصلة، آية بعد أُخرى لعلهم يعقلون، ولكنهم كانوا عنها غافلين، فلم يتدبروا فيها، ونقضوا العهد الذي قطعوه على أَنفسهم بالإِيمان إِن كشف الله العذاب عنهم، وقد مرّ بيانه وهو عذاب الطوفان والجدب والجراد والقمل والضفادع والدم، وفي هذه القصة زجر للمكذبين بنبينا محمَّد ﷺ الجاحدين لآياته[١].

فهيهات، للمجرمون والمنحرفون لا عهد لهم فقد ألفوا الكفر، واعتادوا التكذيب، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٢] ، وقالعزوجل: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.[٣] .

(فَكَانَتْ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ بَعْضُهَا عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ، لِيَكُونَ لِلَّهِ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةَ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَغْرَقَهُمْ فِي الْيَمِّ)[٤]

---

[١] ينظر :التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء، ٣/ ١٤٩٨ـ ١٥٠٠.

[٢] الأنعام: ٣٤.

[٣] الأنعام: ١٤٧.

[٤] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٠/ ٣٨٩.

فلما كذبوا بالآيات المفصلات التي جاءت الواحدة تلو الأخرى بعد أن كشف الله عنهم العذاب، فحقت عليهم سنة الله في إهلاك القوم الظالمين وفق سنن اللهﷻ العادلة.

خامساً: التكذيب بالآيات سبب للإغراق.

قال ﷻ: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [1] .

لما اعتاد الكفار على التكذيب والكفر بالآيات حق عليهم عذاب الإغراق، فسنة الله الجارية في الأمم المكذبة بأن الله لا يهلك قوما إلا بعد إنذارهم، وبذلك يقيم عليه الحجة، وحين يأتي العذاب يكون شديدا غليظا.

ففي ذكر آل فرعون وبيان عذاب الله لهم؛ والمتمثل في الإغراق حثا على الاعتبار بأحوالهم ومآلهم وما أصابهم من عذاب، (فَعَلَ هَؤُلَاءِ من المشركين المكذبين بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمَا فَعَلَ الأمم الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا أَيْ عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ أَيْ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَفُوتُهُ هارب)[2].

فمن عدل السنن الإلهية وثباتها وجريانها على الكل بنفس الوتيرة، فحين تتوفر نفس الأسباب وتوجد نفس المقدمات تعطى نفس النتائج ونفس المسبَّبات، فكما حلّ العذاب على الأقوام الغابرة، سيحل على كفار مكة.

---

[1] الأنفال: ٥٤ .

[2] تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ٤/ ٦٩.

المبحث الثاني
أثر الوعي بالسنن في حياة الناس

إن لموضوع السنن أهمية عظمى، ودور بارز في حياة الناس يكمن في تجليه معالم الماضي البعيد وفهم الحاضر المعاش، واستشراف المستقبل الزاهر، ويستطيع الإنسان أن يحي حياة طيبة؛ ذلك أن لفقه هذه السنن الربانية ومن ثمة الوعي بها أثر بارز في حياة الناس، فكشف وقراءة معالم الماضي، وتحليلها ذاك هو الاعتبار المطلوب، المؤدي إلى الاستبصار والوعي، قال ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [١] .

فبالاعتبار بأخبار الماضين (تبصر بالسلوك الصحيح، وتعصم من الوقوع في أخطاء السابقين)[٢] وبعد التبصر والاعتبار يأتي دور التحليل والدرس، لاجتناب سقطاتهم، والابتعاد عن مواضع السقوط، ومواطن الانهيار، التي

---

[١] الحج: ٤٦.

[٢] سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفة، ص٩.

قادتهم إلى الاستدمار، فحركة التاريخ صعودا، ونزولا، محكومة بوعي السنن وفقهها، ومجاراتها، وعدم التنكب عنها، وفي إدراكها، وتسخيرها وحسن استثمالها، فهما أشمل، وأكمل لحاضر الناس، وتحقيقا لمصالحهم في معاشهم. ذلك أنه لا سبيل للفوز بحاضر مرضي، مشرفا إلا بالعمل بمقتضى سنن الله تعالى في الكون والمجتمع، والإنسان، فإن دراسة سنن قيام الجماعات والأمم، والحضارات وسقوطها، تعتبر منارة هادية في الوصول إلى الفوز بواقع سعيد، هنيء، وحاضرا مزدهرا متطورا؛ ومن هذه السنن التي يجب فقهها، والوعي بها، وحسن استثمارها في الحاضر المعاش.

المطلب الأول: سنة الله في النصر والتمكين:

حتى يمكن للجماعة المسلمة اليوم، كما مكن الله لها في القرون الخيرية الأولى؛ وهذا أبرز أثر لفقه السنن الإلهية في حياة الناس.

عرفت سنة الله في التمكين (بأنها قانون الله المطرد في خلقه، ونظامه الحاكم المهين في أفعالهم الذي إذا اتبعه عباده أقدرهم على التصرف في أرضه والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكينة في كيفية التعامل مع مفرداتها، وإحسان توظيفها[١] .

ذكرت كلمة التمكين في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة[٢]، قال تعالى:

---

[١] سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، محمد رمضان خميس زكي، دار المقاصد، القاهرة، ط/١، ١٤٢٦ – ٢٠١٥م،ص١٣.

[٢] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد بن عبد الباقي، (المتوفي: ١٣٨٨ هـ)، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤، ص٦٧٢..

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [١] قال الرازي في معنى مكناهم: مَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ جَعَلَ لَهُ مَكَانًا وَنَحْوَهُ فِي أَرْضٍ لَهُ ... أَثْبَتُّهُ فِيهَا ... وَالْمَعْنَى: الْبَسْطَةِ فِي الْأَجْسَامِ وَالسَّعَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالِاسْتِظْهَارِ بِأَسْبَابِ الدُّنْيَا .[٢]

فالتمكين إذن يشمل كل ما يحقق الحياة الطيبة، ويوفر للإنسان أسباب السعادة من صحة الأبدان، وسعة الرزق وغيرها، ويضيف الشوكاني معنى آخر للتمكين يقول: (أَيْ مَكَّنَّاهُمْ تَمْكِينًا لَمْ نُمَكِّنْهُ لَكُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّا أَعْطَيْنَا الْقُرُونَ الَّذِينَ هُمْ قَبْلَكُمْ مَا لَمْ نُعْطِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَعْمَارِ وَقُوَّةِ الْأَبْدَانِ وَقَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ جَمِيعًا، فَإِهْلَاكُكُمْ- وَأَنْتُمْ دُونَهُمْ-)[٣] .

فالتمكين عطاء من الله وزيادة فضل في القوة المادية[٤] ويرى ابن عاشور أن: التمكين يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر... والتمكين في الأرض تقوية في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بان يكون في منعة من العدو وفي سعة في الرزق، وفي حسن حال [٥].

---

[١] الأنعام: ٦.

[٢] ينظر:مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، ١٢/ ٤٨٤.

[٣] فتح القدير، ٢/ ١١٥.

[٤] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط/٥، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م، ٢/ ٣٧.

[٥] ينظر: التحرير والتنوير ،٧/ ١٣٧.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾أي: أَلَم يعلم هؤلاءَ المكذبون – بمعاينة الآثار، وسماع الأَخبار – كم أَهلكنا قبلهم من أَهل قرن: مكناهم في الأَرض ما لم نمكن لكم ، حيث مَنَحْناهم الغِنَى والسعة والاقتدار على التعمير. فعمروا الأَرض، وبَنَوُا الحصون والقصور.﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾أَي وأَرسلنا عليهم السحاب يدر عليهم المطر الغزير، وجعلنا الأَنهار تجرى من تحت مساكنهم، وبين مزارعهم. فيستمتعون بحسن مرآها، وجماك جريانها، ولا يجدون صعوبة في الانتفاع بها.﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾. أَي فكان عاقبة أَمرهم: أن أهلكنا أهل كل قرن منهم، بسبب ذنوبهم التي كانوا يجترِحُونَها، وأوجدنا – من بعدهم – ناسا آخرين يصرون البلاد.

وفي هذه الآية وعيد لأهل مكة، بمثل ما عوقبت به الأمم السابقة، من الإهلاك بكفرهم وذنوبهم، كما أُهلِك هؤلاءِ السابقون، ولم تغن عنهم قُوتَّهُمُ وتمكينهم شيئًا)[1].

وآثار هذا التمكين قائمة إلى هذا اليوم، وفي ذلك دعوة للنظر والاعتبار، ورغم هذا التمكين كذبوا وعصوا فحلت عليهم سنة اللهﷻ المطردة في عقاب المكذبين؛ والجميل.

المطلب الثاني: سنة التمكين جزاء عادل للمؤمنين المصدقين

أن سنة التمكين لم تذكر في القرآن الكريم إلا للكفارالمكذبين، فقد وردت أيضا كجزاء عادل للمؤمنين المصدقين، فمن الآثار الإيجابية لفقه سنن الله

---

[1] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء، ٣/ ١٢٠١وما بعدها.

ﷻحصول التمكين في الحياة الدنيا، ومن ثمة الفوز بطيب الحياة، فهذه الآيات التي سوف نذكرها لبيان سنة التمكين للمؤمنين تبعث الأمل والطمأنينة في النفوس، وتحفز على التسابق إلى اكتشاف وفقه سنن اللهﷻ العادلة وتفعيلها في حياتهم بشكل إيجابي، لينالوا وعد اللهﷻ الحق في النصر والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [1] يقول الرازي قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، (وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا التَّمَكُّنِ السَّلْطَنَةُ وَنَفَاذُ الْقَوْلِ عَلَى الْخَلْقِ)[2]

أنها سنة اللهﷻ في التمكين والنصر التي ترتبط فيها النتائج بالمقدمات؛ والأسباب بالمسببات فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه... والأمر بعد ذلك لله ﷻ، يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصرا[3]، إنه التمكين والنصر الذي يؤدي إلى تحقيق نواميس اللهﷻ وقوانينه في الحياة، سنن لا تحابى ولا تجامل ولا تعطي النصر، النهوض، ولا

---

[1] الحج: ٣٨ – ٤١.

[2] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، ٢٣/ ٢٣٠.

[3] ينظر : في ظلال القرآن، سيد قطب،١٧/٢٤٢٦ .

الاستخلاف والتعمير جزافا، بل وفق سنن مضبوطة بقوانين تحكم سير التاريخ وتوجه أحداثه يطلق عليه اسم السنن التاريخي، (وهي الضوابط والقوانين التي تحكم التاريخ)[١] أو (القوانين التي تتحكم في مسيرة التاريخ البشري، وفي حركته وتوجيه أحداثه) [٢]

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر سنة التمكين للمؤمنين،التي تبعث الأمل والطمأنينة في النفوس، وتحفز على التسابق إلى اكتشاف وفقه سنن اللهﷻ العادلة وتفعيلها في حياتهم بشكل إيجابي، لينالوا وعد الله الحق في النصر والتمكين في الأرض، عطاء من اللهﷻ، وفضل عظيم، قوله ﷻ :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] ، والتمكين ليوسف عليه السلام كان على مراحل:

الأولى: إنقاذه من القتل الذي هم به إخوته حيث عزموا على التخلص منه بالقتل لولا رحمة الله به، فانصرفوا من القتل إلى إلقائه في غيابات الجب. ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ

---

[١] السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، دار السلام، القاهرة، ط/١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م، ص ٤٤. ٦٣.

[٢] سنن الله في الآفاق والأنفس وعلاقتها بالمجتمع، مقال: محمد أمحزون، مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن، العدد/ ٢٤٣، ٢٠٠٧ م،ص.٧.

[٣] يوسف: ٢١.

فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1] ، ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[2] .

الثانية: فكان بإنقاذه من البئر وإخراجه عن طريق السيارة﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾[3]

الثالثة:التمكين له بأن جعله العزيز أمين على خزائن مصر، وسبب هذا الأخير أي التمكين على خزائن مصر، سببه تعليمه تأويل الأحاديث فلولا لم يمكن له في هذا الأمر لما خرج من السجن، ولا وليا هذه المكانة والمرتبة العظيمة، قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[4] .

يقول الرازي: في تفسير الآية : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ (أَيْ كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْجُبِّ مَكَّنَّاهُ بِأَنْ عَطَّفْنَا عَلَيْهِ قَلْبَ الْعَزِيزِ، حَتَّى تَوَصَّلَ بِذَلِكَ إِلَى أَنْ صَارَ مُتَمَكِّنًا مِنَ

---

[1] يوسف: ٩ – ١٠.

[2] يوسف: ١٥ .

[3] يوسف: ١٩.

[4] يوسف: ٥٤ – ٥٦.

الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي أَرْضِ مِصْرَ[١]. .

وإذا تتبعنا سنة الله في التمكين ليوسف عليه السلام وقفنا على أسباب هذا التمكين باعتبار ارتباط السنن بمبدأ السننية، فاجتمعت ليوسف عليه السلام عدة أسباب لينال هذا التمكين في أرض مصر، منها العفة، والعلم بتأويل

الأحاديث، والحرص على نفع الناس، وتحقيق مصالحهم في معاشهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾، يقول : سيد قطب، في تفسير هذه الآية: والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية... وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة... ولم يكن يوسف يطلب لشخصه... لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة[٢]. فجعل نفسه مسؤول على ضرورة الحفاظ على أمور الناس ،أنه عليه السلام كَانَ مُكَلَّفًا بِرِعَايَةِ مَصَالِحِ الْخَلْقِ[٣].

.فهذه بعض الأسباب التي كان بها التمكين ليوسف عليه السلام؛ فلما حفظ يوسف عليه السلام مصالح الناس، ورعاها حق رعايتها، مستعملا ما علمه الله عز وجل إياه في تحقيق منافع الخلق، وتلبية حاجاتهم الضرورية المؤدية إلى حفظ كلية، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية، فحفظ النفس بتوفير الأكل اللازم لبقاءها

---

[١] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، ١٨/ ٤٣٥.

[٢] ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب،١٣/ ٢٠٠٥.

[٣] ينظر:: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي، ١٨/ ٤٧٣.

حية، من أكمل وأفضل درجات العلم النافع، بهذه الأوصاف استحق يوسف عليه السلام أعلى درجات التمكين، قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

"على هذا النحو مكنا ليوسف عليه السلام في الأرض، وثبتنا قدميه، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا، ... يتخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود... فنبدله من العسر يسرا، ومن الضيق فرجا، ومن الخوف أمنا، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا [١] فهذه بعض فوائد التمكين وأثاره، نستخلص من خلال تمكين يوسف عليه السلام خاصة وللمؤمنين عامة.آثاراً منها:

١. تيسير الصعاب.
٢. تفريج الضيق.
٣. تحقيق الأمن والطمأنينة بعد الخوف والفزع.
٤. نيل الحرية وفك القيود.
٥. العزة بعد الهوان، والمقاومة العالية بين الناس.
٦. الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ

---

[١] ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب،١٣/٢٠١٤.

وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾[1] هذه الآية عمدة قضية التمكين ودرة تاجها وتكاد تكون في المحور والمعلم الأساس الجامع لأسباب وآثار التمكين في حياة الناس[2]، فبدت بذلك سنة التمكين سنة من سنن اللهﷻ الثابتة التي أساسها عدل اللهﷻ وسعة فضله ورحمته بعباده.

المبحث الثالث
السنن الإلهية في تغيير المجتمعات

من السنن الإلهية الاجتماعية التي تعمل على التغيير في المجتمع الإسلامي، والنهوض به سنة الأخذ بالأسباب لأن من لوازم التغيير الجاد، تغيير نفوس البشر وأحوالهم، وتغيير المجتمعات، وهذا كله لا يتم إلا بالأخذ بالأسباب، ذلك أن كل ما يحدث في الوجود إنما يقع في إطار سنة اللهﷻ المحكمة بربط الأسباب بمسبباتها، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[3].

المطلب الأول : مفهوم السبب لغة واصطلاحاً

اولاً : السبب لغة :كل شيء يتوصل به إلى غيره والجمع أسباب، وكل شيء يتوصل به إلى الشيء فهو سبب، قال ابن منظور: السَّبَبُ: كلُّ شيءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلى غَيْرِهِ؛ وَفِي نُسخةٍ: كلُّ شيءٍ يُتَوَسَّل بِهِ إِلى شيءٍ غيرِه، وَقَدْ تَسَبَّبَ إِليه، والجمعُ أَسْبابٌ؛ وكلُّ شيءٍ يُتَوصّلُ بِهِ إِلى الشيءِ، فَهُوَ سَبَبٌ. وجَعَلْتُ

---

[1] النور: ٥٥ – ٥٧.

[2] ينظر:سنة التمكين في ضوء القرآن الكريم، محمد رمضان خميس زكي،ص١٩.

[3] الأنبياء: ١٦.

فُلاناً لِي سَبَباً إِلى فُلانٍ فِي حاجَتي[١]، وقال الجرجاني:السبب : السبب: في اللغة اسم لما يتوصل به إلى المقصود[٢]، وقال الفيروزآبادى: (والسَّبَبُ: الحَبْلُ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى غيرِه، وجمعه أَسْبابٌ، وأَسْبابُ السماءِ: مَراقِيها أو نَواحيها أو أبوابُها)،[٣] وقال الكفوي: (السَّبَب) : كل شَيْء وصلت بِهِ إِلَى مَوضِع أَو حَاجَة تريدها فَهُوَ سَبَب، وَيُقَال للطريق: سَبَب، لِأَنَّك بِسَبَبِهِ تصل إِلَى الْموضع الَّذِي تريده[٤]،

وبهذا المعنى اللغوي للسبب ورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[٥] مَعْنَاهُ: أَعْطَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ الشَّيْءِ من علم أو قدرة أو آلة[٦].

---

[١] لسان العرب، ابن منظور ،١/ ٤٥٨.

[٢] التعريفات ، الجرجاني ، ص ١١٧.

[٣] القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط/٨، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص ٩٦.

[٤] الكليات ، الكفوي، ص ٤٩٥.

[٥] الكهف: ٨٤ – ٨٥.

[٦] ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٢/ ٥٩٩ وما بعدها ، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ١٥/ ٣٧١ وما بعدها، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ٢/ ٧٤٣، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ، ٣/ ٥٣٨، زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي –

ثانياً: السبب **اصطلاحاً** : بأنه: مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الِاسْتِعْلَاءِ ثُمَّ اُسْتُعِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ فَقِيلَ هَذَا سَبَبُ هَذَا وَهَذَا مُسَبَّبٌ عَنْ هَذَا[١]، وعرف الجرجاني السبب بأنه : عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه[٢].

وعرف السبب بتعاريف مختلفة ومصطلحات ومعاني متقاربة مؤتلفة منها:

١. السبب عند الأصوليين:

أ. قال الفراء: (والسبب: ما يتوصل به إلى الحكم ويكون طريقًا لثبوته، سواء كان دليلا أو علة أو شرطًا أو سؤالا مثيرًا للحكم ،والدليل عليه: أن الله تعالى سمى الطريق سببًا، فقال عزَّ من قائل: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[٣] ، أي: طريقًا.

وسمي الطريق سببًا؛ لأنه يتوصل بسلوكه إلى المقصود. وسمي الباب سببًا؛ لأنه يدخل منه إلى المقصود. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾[٤] وأسباب السموات: أبوابها[١].

بيروت، ط/١، ١٤٢٢ هـ، ٣/ ١٠٦، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، ٢١/ ٤٩٥، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، ٣/ ٢٩١، تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، ٥/ ١٧١.

[١] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت، ١/ ٢٦٢.

[٢] التعريفات ، ص ١١٧.

[٣] الكهف: ٨٥.

[٤] غافر: ٣٦ – من الآية:٣٧.

ب. وقال الشاطبي: (فَأَمَّا السَّبَبُ؛ فَالْمُرَادُ بِهِ: مَا وُضِعَ[1] شَرْعًا لِحُكْمٍ لِحِكْمَةٍ يَقْتَضِيهَا ذَلِكَ الْحُكْمُ، كَمَا كَانَ حُصُولُ النِّصَابِ سَبَبًا فِي وُجُوبِ الزَّكَاةِ، وَالزَّوَالُ سَبَبًا فِي وُجُوبِ الصَّلَاةِ، وَالسَّرِقَةُ سَبَبًا فِي وُجُوبِ الْقَطْعِ، وَالْعُقُودُ أَسْبَابًا فِي إِبَاحَةِ الِانْتِفَاعِ أَوِ انْتِقَالِ الْأَمْلَاكِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ[2]).

ت. قال التهانوي في تعريفه للسبب : (... وفي الشريعة عبارة عمّا يكون طريقا للوصول إلى الحكم غير مؤثّر فيه) [3].

٢. السبب عند الفقهاء على أربعة إطلاقات:

الأول :ما يقابل المباشرة كمن إذا حفر مثلا محمد بئرا ، ثم جاء عمر فألقى فيه خالدا يعتبر في هذه الحالة محمد سببا في هلاك خالد ، وعمر المباشر له ، والاقتصاص يكون على عمر لأنه المباشر.

الثاني :أن السبب هو علة العلة ، أو كما يعبر عنه الحنفية بأنه في معنى

---

[1] العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى : ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه : د أحمد بن علي بن سير المباركي، (بدون ناشر)، ط/٢، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ١/ ١٨٣.

[2] الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،ط/١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ١/ ٤١٠

[3] موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم

تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط/١، ١٩٩٦م، ١/ ٩٢٤.

العلة ، كمن يرمي معصوم الدم فيقتله ، فيعد الرمي في هذه الحالة علة للإصابة التي هي علة إزهاق النفس ، ولما حصل الهلاك بالإصابة لا بالرمي ، كان هذا الأخير شبيها بالإصابة في وضع اللسان العربي، وحكمه حكمها ، لذلك سمي عندئذ . بعلة العلة.

الثالث :يطلق الفقهاء أيضا السبب على العلة الشرعية دون شرطها المكمل لها ، فاليمين مثلا هو سبب وجوب كفارته المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [1] وأما الحنث فهو مكمل لابد منه في وجوب تلك الكفارة ، لهذا تضاف الكفارة إلى اليمين دون إضافتها إلى الحنث ، ويلاحظ ذلك في الألفاظ المتداولة عند الفقهاء بقولهم : (كفارة اليمين) ، دون (كفارة الحنث).

الرابع :أرادوا بالسبب أيضا العلة الأصولية ، التي هي الوصف الظاهر المنضبط المتعدي المناسب للحكم المؤثر فيه الذي لم يلغ الشارع اعتباره ، يقال : سبب الحكم كذا (أي علته) [2]

وبالنظر لهذه المعاني اللغوية والاصطلاحية يفهم:

---

[1] المائدة: ٨٩.

[2] ينظر: الْمُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ الْمُقَارَنِ، عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، مكتبة الرشد – الرياض، ط/١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، ١/ ٣٩٧وما بعدها.

١. أن مدار المعاني اللغوية في معنى السبب ما يتوصل به إلى غيره.
٢. أن السبب قد يكون مادياً وقد يكونه معنوياً.
٣. ان السبب وسيلة من الوسائل يتوصل بها إلى المطلوب.

المطلب الثاني :ربط الأسباب بمسبباتها

ان الأسباب والمسببات من فعل الله ويقيناًإن الله ﷻهو خالق الأسباب والمسببات، وهي من فعله وحكمه ﷻ، والأدلة على ذلك عديدة منها، قوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢]

يقول ابن تيمية فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات)[٣].

ويقول ابن رشد :(إن هذه الأسباب ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل، والله سبحانه هو الذي خلق الأسباب وقدرها وهو يقوم عليها، كما يقوم على كل مخلوق من مخلوقاته، إذ الموجودات يفعل بعضها في بعض ومن بعض، وأنها ليست مكتفية بنفسها في هذا الفعل؛ بل بفاعل من خارج، فعله شرط في فعلها، بل وفي وجودها فضلاً عن فعلها) [٤].

---

[١] البقرة:من الآية: ٢٢.

[٢] فصلت: ٣٩.

[٣] مجموع فتاوى ابن تيمية، ٩/ ٧٠.

[٤] الأسباب والمسببات (دراسة مقارنة، تحليلية للغزالي وابن رشد وابن عربي)، محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت ،ط/١، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٧ مص١٢٥.

فالله ﷻهو خالق كل شيء ومقدره، ولولا تعلق إرادة الله ﷻ ما ترتبت المسببات على أسبابها ولا النتائج على مقدماتها، لأن السبب أو الناموس لا يملك وحده قدرة الانطلاق والتوافق الذي يقع بها ألف حادث على نسق واحد، بل لا بد من القدرة التي يتتابع بها هذا التسبب مرة مرة وحادثة حادثة[١] .

إن كل إنسان يسعى باستمرار بقصد أو من غير قصد إلى ربط الأسباب بمسبباتها من أجل تحقيق أهدافه في سلوكه اليومي؛ بل أصبح هذا الربط من سجاياه، وقانوناً من قوانين الحياة يمارسه يومياً، لأنه يعلم علم اليقين أنه بدون هذا الربط لا يمكن بل يستحيل عليه تحقيق أي هدف، فالذي يريد بناء بيت لا بد وأن يوفر الإمكانات اللازمة لإنجازه من المال واليد الفنية اللازمة، والذي يريد طباعة كتاب لابد وأن يوفر جميع إمكانات الطباعة مادية وبشرية وفنية وغيرها...وهكذا، حتى أننا نلاحظ الطفل الصغير حين يريد الحصول على حاجة ما يلجأ فطرياً إلى ربط الأسباب بمسبباتها فيتوسل بأخذ النقود مثلاً لشراء حاجته[٢].

يقول الفارابي: (كل ما لم يكن فكان، فله سبب، ولن يكون المعدوم سبباً لحصوله في الوجود، والسبب إذا لم يكن سبباً، ثم صار سبباً، فالسبب صار سبباً، وينتهي إلى مبدأ يترتب عنه أسباب الأشياء على ترتب علمه بها، فلن نجد في عالم الكون طبعاً حادثاً، أو اختياراً حادثاً إلا عن سببه .ويرتقي إلى

---

[١] ينظر: العقيدة في القرآن الكريم، محمد المبارك ، دار الفكر،(د.ط،د.ت) ص ٤ـ ٢٩.

[٢] ينظر: السببية ودورها في حياة المسلم، عبد الكريم الشامي ، دار البيارق، بيروت –لبنان، ط/١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص٣٨.

سبب الأسباب والأشياء ...ولا يجوز أن يكون الإنسان متبدءاً فعلاً من غير استناد إلى الأسباب الخارجية التي ليست باختياره، وتستند تلك الأسباب إلى الترتيب، والترتيب يستند إلى التقدير، والتقدير يستند إلى القضاء ...والقضاء عن الأمر ...وكل شيء مقدر) [١].

فالله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها شرعاً وقدراً ، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الكوني القدري ، ومحل ملكه وتصرفه .وقد جعل ﷻ مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة ، كل ذلك مرتبطاً بالأسباب قائماً بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والشرع كله أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جارٍ عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر[٢] ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [٣] لِأَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ نِظَامَ هَذَا الْعَالَمِ مُؤَسَّسًا عَلَى اسْتِفَادَةِ الْمُسَبَّبَاتِ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَالنَّتَائِجِ مِنْ مُقَدِّمَاتِهَا[٤].

وأقام الكون ونظام الحياة على الأخذ بالأسباب والسعي فيما أمر به ، وكل ذلك ينتفي إذا اطلعنا على الغيب الذي استأثر به ؛ لأننا سنتكل عليه ولا نسعى إلا فيما كتب لنا السعي فيه، ومن ثمّ يرفع التكليف وتنتفي سنة الابتلاء والجزاء.

---

[١] الأسباب والمسببات ،الشرقاوي، ،ص٨١.

[٢] شفاء العليل، ابن قيم الجوزية،ص١٨٨.

[٣] آل عمران: من الآية: ١٧٩.

[٤] التحرير والتنوير ،ابن عاشور، ٤/ ١٧٩.

والله ﷻقد كفل أموراً لعباده بموجب فضله وكرمه ، فحتى في هذه الأمور المكفولة حثنا ورغبنا على الأخذ بالأسباب ، والدليل على ذلك قوله ﷻ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [1] فقد تكفل الله ﷻبرزق مخلوقاته بدليل قوله ﷻ:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] وقوله ﷻ:﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[3] وقوله ﷻ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [4] لكنه ﷻ جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة .ولذلك ورد في الحديث عَنِ عَاصِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ)[5] ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَخَوَانِ

---

[1] الملك: ١٥.

[2] هود: ٦ .

[3] الذاريات: ٢٢ .

[4] العنكبوت: ٦٠ .

[5] المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، (د.ط،د.ت) برقم(٨٩٣٤)٨/ ٣٨٠، شعب الإيمان ،أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار

عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:(لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ)[١] ، وعَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ حَنْطَبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ: (مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ)[٢] .

السلفية ببومباي بالهند، ط/١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م ، التوكل بالله ﷻ والتسليم لامره تعالى في كل شيء ، برقم(١١٨١)٢/ ٤٤١.

[١] الجامع الكبير – سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨ م، أَبْوَابُ الزُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَابٌ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، برقم(٢٣٤٥)٤/ ١٥٢، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

[٢] **المسند، أبو عبد الله مُحَمَّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٠ هـ، ص ٢٣٣،**

المعجم الأوسط، الطبراني ، بلفظ: وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ: (لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ؛ فَإِنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَ رِزْقِهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ الْحَلَالِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْحَرَامَ) برقم(٩٠٧٤)٩/ ٣٨، **شعب الإيمان، البيهقي** ، التوكل بالله ﷻ والتسليم لامره تعالى في كل شيء ، برقم (١١٤١)٢/ ٤٠٦.

الفصل الرابع

السنن الإلهية و استشراف المستقبل في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية

يعيش الإنسان بين ماض سحيق محاطٍ بغيب لا يعلم عنه شيئاً ، وبين مستقبل مغيب عنه لا يدري ما الله صانع فيه . ولا يملك الإنسان وهو محدود في الزمان والمكان أن يملك معلومات صحيحة مؤكدة وموثقة ، إلا من طريق وحيد هو طريق النبوة والرسالة إذ بواسطتها يطلع الله أنبياءه ورسله على ما يشاء من أخبار الماضي وتكوينه ونشأته وما حدث فيه أو من أخبار المستقبل التي لا يعلم أحداثه وتفاصيله قبل كونه ووقوعه إلا الله العليم الخبير: قال ﷻ: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [1] ، وقال ﷻ: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [2] وما عدا هذا الطريق فإنما هو حدس وتخمين ، وظنٍ وتخرُّص لا يغني من الحق شيئاً .

والإنسان مجبول على حب المعرفة والتطلع إلى ماضيه ومستقبله ، شديد الولوع بمعرفة أيامه ، وهو مع هذا مدعوٌ ومكلف بالبحث والتأمل والنظر ليكون على يقين تام من مبدئه ومعاده ، وبداياته ونهاياته قال ﷻ : ﴿ أَوَلَمۡ

---

[1] النمل: ٦٥.

[2] الجن: ٢٦ – من الآية: ٢٧.

يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1] ،

والمؤمن العاقل المدرك يستفيد من الماضي وأحداثه وتجاربه ويستخلص منه العبر والدروس والعظات ويؤسس حاضره على علم وهدى والقرآن مليء بالدعوة للاستفادة من الماضي قال ﷻ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [2]، وقد ذم الله ﷻ الذين لا يفكرون ولا يعتبرون بمصارع السابقين ونهاية الظالمين، فقال ﷻ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3] ، هذا فيما يتعلق بالماضي وأحداثه .

أما المستقبل وتطلعاته فقد أمر الله عباده بأن يكونوا على استعداد تام ويقظة مستمرة، وعمل دؤوب من أجل مستقبلهم، كما قال ﷻ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ ﴾ [4] ، وقال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ

---

[1] العنكبوت: ١٩ – ٢٠.

[2] آل عمران: ١٣٧.

[3] الحج: ٤٥ – ٤٦.

[4] الحشر :من الآية: ١٨ .

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] ، وقال ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، وقال ﷻ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [3] ، وإذا كان اهتمام القرآن والسنة بالدار الآخرة لأنها الحياة الحقيقية، فإننا نجد الاهتمام كذلك بحياة الإنسان فرداً وأسرة ومجتمعاً وأمة في حاضرهم ومستقبلهم ، ولقد شرع الله لعباده ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ووضع لهم معالم، وزودهم بملكات وقدرات يستطيعون من خلالها صياغة الحاضر والمستقبل، وتحقيق الأهداف الكبيرة التي كلَّف الله الإنسان بها، وهي عبادته تعالى، وعمارة الأرض وإصلاحها، وإقامة العدل وتحقيق الخير ونشره بين العالمين.

واقتضت حكمة الله ﷻ وإرادته أن يجعل لكل شيء سببا، وانه لا يجري في هذا الكون شيء إلا وفق علم الله ﷻ وإرادته وسننه، تلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل، فهو سبحانه المتصرف بشؤون هذا الكون والمنظم لمجرياته وأحداثه.

---

[1] آل عمران: ١٣٣

[2] التوبة: ١٠٥ .

[3] البقرة: من الآية: ١٤٨

.

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [1] ، ويقول ﷻ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [2] .

وبتتبع لسنن الكون ومجرياته نجدها تسير في نسق منتظم يمكن أن يشكل تصور عن طبيعة هذه الحياة وماذا يراد منها وكيف ينبغي لها أن تكون.

وعلى هذا نجتهد بذكر مجموعة من السنن الإلهية التي قررها القرآن الكريم لتكون شواهد على ما يستشرفه من المستقبل في ضوء آيات القرآن الكريم، حيث أن السنن الإلهية تكاد تكون شاملة لكل مجالات الحياة، يقول ﷻ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [3] ويقول الله ﷻ ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [4] .

والآيات الكريمة متوافرة في هذا الباب.

المبحث الأول

تعريف الاستشراف وصيغ المستقبل،

المطلب الأول: الاستشراف، لغةً واصطلاحاً.

---

[1] الأنعام: ١١.

[2] الإسراء: ٧٧.

[3] آل عمران: ١٣٧ – ١٣٨.

[4] فاطر: ٤٣.

اولاً : الاستشراف لغة :مأخوذ من الفعل الثلاثي (شَرفَ)، والشين والراء والفاء أصل يدل على علو وارتفاع. وأشرفت عليه، أي اطلعت عليه من فوق، وذلك الموضع مشرف. ومشارف الأرض: أعاليها، تشرف الشيء واستشرفه : وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ)[١].

وأَصله من الشرف والعلُو ،كأَنه ينظر إليه من موضع مرتَفِع فيكون أَكثر لإدراكه[٢].

---

[١] متفق عليه :صحيح البخاري، كِتَابُ الفِتَنِ، بَابُ تَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، برقم (٧٠٨١)٩/ ٥١، ومسلم،كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ نُزُولِ الْفِتَنِ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ، برقم(٢٨٨٦) ٤/٢٢١١.

[٢] ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، ط/٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٤/ ١٣٧٩، معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٣، مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط/٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م،ص ١٦٤، لسان العرب، ابن منظور ، ١٧٠/٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادى ، ص ٨٢٣، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب

من خلال التعريف اللغوي يمكن القول، بأن الاستشراف يعني في اللغة أربعة معاني هي: الشَرف، العلو، الارتفاع، القرب.

ثانياً : الاستشراف اصطلاحاً:

عرف الاستشراف اصطلاحاً بتعريفات عدة ،منها : انه عبارة عن ذاك التطلع للمستقبل ومحاولة امتلاك الأدوات المناسبة والتي تعين على تحسين وتوضيح صورة المستقبل الذي ننشده[١]. تطلع الى المستقبل من خلال دراسة الماضي وفهم الحاضر والسنن الفاعلة فيهما "[٢] .

وعرف بانه: الوقوف على ربوة عالية لاستطلاع آفاق المستقبل المنظور ، كل ما يسمح به ملء بصره وبصيرته[٣] ،لذا فالجهدالاستشراقي المستقبلي هو نوع

بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ط،د.ت) ٢٣/ ٥٠٥.

[١] ينظر: السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، د.عماد عبدالكريم خصاونه، د، خضر إبراهيم قزق ، مجلة المناره للبحوث والدراسات، الاردن المجلد ١٥ العدد/٢ ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م،ص٢١٣وما بعدها.

[٢]ينظر: أثر الاستشراف والتخطيط المستقبلي في العلم والتعليم في ضوء السنة النبوية، د. طه محمد فارس، مؤسسة الريّان ناشرون، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.ص١٢وما بعدها

[٣] ينظر:المرجع السابق ، ص.١٥، الاستشراف في السنة النبوية وأثره في الدعوة إلى الله، د. حذيفة عبود مهدي، بحث وقدم الى المؤتمر العلمي الثامن الذي عقدته كلية

من الحدس التاريخي المستند إلى قاعدة علمية، وعلى هذا يمكن القول بانه سلوك يتطلب معرفة ومهارة ويستلزم عزيمة وإرادة ويهدف إلى جلب خير أو دفع ضر عبر أنشطة ذهنية معينة [١].

ومنهم من عرفه بأنه: (المستقبل والتبصر بأحداثه والألمعية والحدس والفراسة بما سيكون فيه، والتحسس والتطلع لاستكشافه وتقدير ما يتوقع فيه، وما سيطرأ على الحاضرمن متغيرات ومستجدات، فهو باختصار: توقع ما سيحدث في المستقبل[٢] .

وعرف أيضاً: هو جهد علمي منظم يدرس الماضي والحاضر ليتوقع المستقبل من خلال سنن اللهﷻ في خلقه [٣].

لذا تكون عملية استشراف المستقبل قائمة على اساسين :

١. محاولة التعرف على ما سيقع في المستقبل .

الإمام الأعظم منشور في مجلة كلية الإمام الأعظم رحمه الله الجامعة ، **العدد الثامن عشر لسنة ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، ص٢٥٥وما بعدها.**

[١]ينظر: أهمية استشراف المستقبل وضوابطه ، د. محمد البشير، دبي، ٢٠١١م ، ص٤٢.

[٢] ينظر: إستشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه دراسة تأصيلية: د.علي بن محمد الشنقيطي، من منشورات: الأمانة العامة للندوة الدولية للحديث الشريف / كلية الدراسات الإسلامية والعربية – دبي، ضمن أعمال الندوة الدولية الخامسة،١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م، ص٤٢٤.

[٣] ينظر:استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية: عبد الرحمن قشوع، رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، ٢٠٠٥، ص١٢.

٢. السعي لصياغة المستقبل وفق أهداف مرسومة من خلال توظيف المعطيات القائمة لتؤثر في مجريات الأحداث القادمة[١].

ومما تقدم ان الاستشراف هو: تفقد وتأمل وتطلع، فإذا ما كانت المقدمات واضحة وثابتة ومقررة بخصوص قضية معينة ، فعندها والحالة تلك تصبح عملية الاستشراف لتلك القضية المتعلقة بتلك المقدمات أكثر وضوحا وأقرب إلى المصداقية، وأكبر احتمالاً لتكون متوافقة لما تم استشرافه إن أحسن قراءة المقدمات وفهمها الفهم المناسب والدقيق.(والله تعالى أعلم)

المطلب الثاني: معنى المستقبل، لغةً واصطلاحاً

اولاً : المستقبل لغة : مأخوذ من الفعل الثلاثي (قبل) ، **قال ابن فارس:** (قَبَلَ) الْقَافُ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَيَتَفَرَّعُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْقُبُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلَافُ دُبُرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُقَدَّمَهُ يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً لِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي

---

[١] ينظر: استشراف المستقبل في القرآن والسنة ، فهمي إسلام جيوانتو .(رسالة ماجستير)، جامعة الإيمان، كليةالشريعة والقانون، صنعاء ، اليمن، ٢٠٠٤م، ص١٤، توقُّعات المستقبل واستشرافه في العقيدة الإسلامية، د. حيدر بن أحمد الصافح، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية،العدد الحادي عشر ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٣٧.

صَلَاتِهِمْ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. وَيُقَالُ: فَعَلَ ذَلِكَ قِبَلًا، أَيْ مُوَاجَهَةً. وَهَذَا مِنْ قِبَلِ فُلَانٍ، أَيْ مِنْ عِنْدِهِ ، كأنه هو الذي أقبل به عليك. وقابلْتها: جعلت لها قبالةِ، لأن كل واحدٍ منهما يقبل على الآخر، والقابلة: الليلة المقْبلة. والعامُ القابل: المقبل، والقَبل: النشزُ من الأرض يستقبِلُك. تقول: رأيتُ بذلك القَبل شخصاً، وافعل ذلك إلى عشر من ذي قَبل، أي فيما يُستَأنف من الزَّمان. [1] . وقيل : قبل نقيض بعد ، والاستقبال : ضد الاستدبار . و استقبل الشيء و قابله : حاذاه بوجهه . وأَفعلُ ذلك من ذي قبل أَي فيما أَستَقْبِل . وافعَل ذلك من ذي قبَل أَي فيما تستقبل . ويقال : فلان قُبالَتي أَي مستقبَلي . قبل نقيض بعدُ. والقُبْلُ والقُبُلُ: نقيض الدبْرِ والدُبُرِ [2] .

ثانياً : المستقبل اصطلاحاً:

---

[1] ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ،٥/ ٥١ وما بعدها.

[2] ينظر:الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،الجوهري ،٥/ ١٧٩٥، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ،٦/ ٤٢٦،مختار الصحاح ، الرازي ،ص ٢٤٦، لسان العرب، ابن منظور ،١١/ ٥٣٦، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي ،٢/ ٤٨٨.

الدنيا في نظر المسلم ممراً للآخرة ، وهي بهذا الاعتبار ليست دار قرار، وأن تطلعه وجهوده وجهاده منصب على قراره ومستقره في الآخرة ، ولا يعني هذا بحال أن نترك الإعداد للمستقبل والتخطيط للحياة الكريمة تحت هذا الاعتبار ، بل العكس تماما هو المراد ، فآيات القرآن الكريم الكثيرة والأحاديث الشريفة تدعوان المسلم وتستحثانه لبناء الحياة الكريمة في حاضره ومستقبله ، وصياغتها بما يحقق العدل والأمان للبشرية جمعاء .

وقد عبر الفقهاء عن الاستقبال الذي بمعنى المواجهة؛ كما في استقبال القبلة وعلى أول الشيء؛ كما في استقبال حول الزكاة) [١] ،و كما في استقبال حول الزكاة ، واما المستقبل باعتبار الزمن فورد استعماله في كتاب الطلاق في ايقاعه في المستقبل[٢] ، وتعريفه في المعاجم الاصطلاحية

---

[١] الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، دارالسلاسل – الكويت، ط/٢، من ١٤٠٤ – ١٤٢٧ هـ،٤/ ٦١.

[٢] الروض المربع شرح زاد المستقنع، منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى (المتوفى: ١٠٥١هـ)،ومعه: حاشية الشيخ العثيمين وتعليقات الشيخ السعدي، خرج أحاديثه: عبد القدوس محمد نذير، دار المؤيد – مؤسسة الرسالة، (د.ط،د.ت) ص ٥٦٩ وما بعدها.

الفقهية:أما المستقبل فيراد به هنا وبالنظر إلى ما سبق قابل الأيام وما ينتظرنا لنعيشه، وقد ذكر الجرجاني أن المستقبل: (هو ما يترقب وجوده بعد زمانك الذي أنت فيه، يسمى به؛ لأن الزمان يستقبله). [١] . وبنفس المعنى قال المناوي: (المستقبل: ما يترقب وجوده بعد الزمن الحاضر سمي به لأن الزمان يستقبله)[٢] .

المطلب الثالث: استشراف المستقبل في القرآن الكريم

واستشراف المستقبل كونه عملية منظمة ، يعني أنها لا تخضع للتنبؤات أو العواطف التي تسير مجرى البحث ، بل هي عملية منظمة تسير بمنطق واضح وبين يبدأ من دراسة الماضي وسنن الله تعالى التي جرت فيها ، لتمتد إلى الحاضر المعاش ، ليرى كيف صارت الأمور وما آلت إليه الحال ، ولينطلق من خلال ذلك كله إلى رسم صورة للمستقبل وليس يقع في هذا

---

[١] . التعريفات ،الجرجاني ، ص ٢١٣.

[٢] التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت–القاهرة،ط/١، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م،ص ٣٠٥.

المجال التنبؤ بالغيب وما شابهه من مصطلحات ، بل وكما ذكرت بأنها عملية منظمة تستند على أسس ولا تتخرص بالغيب ، و في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث المسلم أن يسير في الأرض ليكتشف آيات الله ﷻ في هذا الكون وفي هذا ما يدله على ما يعينه في حاضره ومستقبل أيامه ، قال ﷻ : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[١] ، وضرورة أن يستعد للغد بكل ما يمكن أن يحتمل من معنى ، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] . أن المقصود بالغد هنا هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ سَمَّاهُ بِالْيَوْمِ الَّذِي يَلِي يَوْمَكَ تَقْرِيبًا لَهُ[٣] ، وقال الإمام القرطبي: يضيف، وَالْعَرَبُ تَكْنِي عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْغَدِ[٤] ، بل أن أكثر المفسرين ذكروا أن المقصود بالْغَدُ: هو

---

[١] الأنعام: ١١ .

[٢] الحشر: ١٨ .

[٣] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي، ٢٩/ ٥١١

[٤] الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ١٨/ ٤٣ ، وينظر: فتح القدير، الشوكاني ،٥/ ٢٤٤.

يَوْمُ الْقِيَامَةِ[١]، إلا أن ذلك لا يمنع أن يفهم ويستفاد من هذه الآية الكريمة ما يمكن فهمه فيما يحتمله النص ، من باب المشهور والرّاجح عند الأصوليّين والفقهاء قاعدة:(أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ)[٢] ، إن جاز ذكر هذه القاعدة هنا . وتوجه الآية الكريمة المسلم إلى ضرورة الانتباه إلى الغد من الأيام الذي يعني في المحصلة المستقبل، وقد

---

(١) . ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، ٥/ ٢٠٢.

[٢] ينظر: المحصول، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ط/٣، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م/٣ ١٢٥،روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، ط/٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ٢/ ٣٥، الأشباه والنظائر، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤١١هـ-١٩٩١م٢/ ١٣٤، الموافقات، الشاطبي ، ٦/ ٤٤٨، البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، دار الكتبي، ط/١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م،٤/ ٢٦٩، الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط) ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤ م، ٣/ ٢٢٧، مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط/٣(د.ت) ١/ ١٣١.

ذكر سيد قطب رحمه الله كيف يوجه هذه الآية بما يمكن أن نأخذ منه العبرة والعظة، حيث ذكر... أن هذا التعبير له إيحاءاته وظلاله التي تتجاوز هذا اللفظ ، وأن التفكر في هذا المعنى كفيل أن يوقظ في نفس المؤمن الهمة إلى بذل المزيد من الأعمال التي تجعله يتجاوز ضعفه ونقصه وتقصيره ولا يكف بالتالي عن النظر والتقليب للوصول إلى الغاية [١].

وأضاف ، ابن عاشور ،أن القرآن الكريمَ أَطْلَقَ (غَدٍ) عَلَى الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مَجَازًا لِتَقْرِيبِ الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْبَعِيدِ لِمُلَازَمَةِ اقْتِرَابِ الزَّمَنِ لِمَفْهُومِ الْغَدِ، لِأَنَّ الْغَدَ هُوَ الْيَوْمَ الْمُوَالِي لِلْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ الْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَقْرَبُ أَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلِ[٢]. وفي هذه الآية الكريمة أيضا ما فيها من ضرورة الإعداد للغد والاستعداد للمستقبل ليكون المسلم بهذا الإعداد والاستعداد مؤهلا لخلافة الله تعالى في أرضه وفق ما يريد الله تعالى.وتتم عملية استشراف المستقبل من خلال دراسة الواقع ربط أحداثه وما يليه ويترتب

---

(١) . ينظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٢٨/ ٣٥٣١.

[٢] . ينظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ١١١ .

عليه باستشراف الأحداث واستقبالها ، وبالتالي صياغة فهم يتناسب ومتطلبات النجاح وتجاوز الأزمات ويلي ذلك كله صناعة المستقبل بما يتناسب والدور الذي أناطه الله تعالى بالأمة الإسلامية من جهة ، وبما يتوافق مع مراد الله تعالى من خلق الكون من جهة ثانية . فكون الآيات القرآنية ، أو الأحاديث النبوية نصت وطلبت من المسلمين العمل على الاهتمام بمستقبلهم الدنيوي، وصياغته وفق أوامر الله تعالى وإرادته ، لكسب مستقبل دنيوي آمن وسعيد ، والاستعداد والتهيؤ لمستقبل أبدي في النعيم المقيم ، فنحن بالنظر إلى هذا وذاك مأمورون أن نحكم العدة، ونتقن التطلع، ونتفنن في امتلاك أدوات الاستشراف التي تعين على جلاء الصورة ووضوح الطريق ، وعليه فان استشراف المستقبل بنية البحث عن ما تنشد البشرية من الخير وفق شرع الله تعالى ومن منظوره ﷻ، عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله ﷻ ، بل هي مدعاة إلى الحصول على عظيم الأجر في الدنيا والآخرة ، وأعظم بهما من كسب يناله المسلم .

المطلب الرابع : استشراف المستقبل في السيرة النبوية

اولاً: استشراف الرسول ﷺالمستقبل في الهجرة النبوية

عندما هاجر الرسولﷺ جعلت قريش لمن جاء برسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديقرضي الله عنه جائزة مائة من الإبل فلما مروا بحي مدلج علم بهم سراقة بن مالك سيد مدلج فركب جواده وسار في طلبهم، فلما قرب منهم سمع قراءة النبيﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات حرصاً على رسول اللهﷺ، فقال أبو بكر يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد لحق بنا فدعا عليه رسول الله فساخت يدا فرسه في الأرض فعرف سراقة إن الذي أصابه هو من أثر دعاء الرسولﷺ فقال لهما ادعوا الله لي ولكما علي أن أرد الناس عنكما فدعا له رسول اللهﷺ فأطلق، فسأل رسول اللهﷺ أن يكتب له كتاباً فكتب له أبو بكر رضي الله عنه في أدم ورجع يقول للناس كفيتم ما ههنا ، وقد جاء مسلماً بعد فتح مكة عام ٨هـ [١] .

وفي رواية أخرى إنه جاء مسلماً عام حجة الوداع ودفع إلى رسول اللهﷺالكتاب

---

[١] ينظر:المغازي النبوية، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، (المتوفى:١٢٤هـ) تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر،دمشق،١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١٠٣، السيرة النبوية ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، ١/ ٤٨٩، صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م،١/ ٥٤ وما بعدها.

الذي كتبه له فوفى له بما وعده[١] وهناك رواية تفيد بأن رسول اللهﷺ قَالَ لِسُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ: (كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟)[٢]

ومما تقدم نستنتج: أن قول رسول الله ﷺ لسراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى إشارة منه ﷺإلى إن المسلمين سوف يفتحون بلاد فارس ويغنمون أموال كسرى ومنها سواريه وهو في ظروف صعبة مهاجراً بدينه من مكة إلى المدينة المنورة، وكان مراد رسول الله ﷺ من هذا امور كثيرة منها:

١. رفع معنويات أصحابه وزرع الأمل في النفوس بأن الغلبة لهذا الدين وان الله تعالى سيظهره ويغلب ملوك فارس يؤيده في هذا قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾[٣] . تثبيت الصحابة على هذا الدين وحثهم على الصبر وتبشير المهاجرين وتصبير المصابين.

---

[١] الفصول في السيرة، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن، ط/٣، ١٤٠٣ هـ، ص ١١٦

[٢] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط/١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م،٢/ ٥٨١.

[٣] غافر: ٥١.

٢. إن أخبار الرسولﷺ عن مستقبل الامة يدل دلالة واضحة على ثقة الرسول الكريمﷺ لمستقبل هذا الدين.

٣. أراد الرسولﷺ أن يثبت سراقة على موقفه وأن يرد قريش عنه.

وقد جاءت مصادر الحديث النبوي الشريف موافقة للرواية التاريخية حيث روى البخاري في صحيحه حديث طويل عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرَفُ، وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺشَابٌّ لاَ يُعْرَفُ، قَالَ: فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ فَيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ، قَالَ: فَيَحْسِبُ الحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الخَيْرِ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ لَحِقَهُمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا فَارِسٌ قَدْ لَحِقَ بِنَا، فَالْتَفَتَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ). فَصَرَعَهُ الفَرَسُ، ثُمَّ قَامَتْ تُحَمْحِمُ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، قَالَ: (فَقِفْ مَكَانَكَ، لاَ تَتْرُكَنَّ أَحَدًا يَلْحَقُ بِنَا)[١] .

ويبدو لنا إن الرواية التاريخية قد زادت على مصادر الحديث النبوي الشريف بوعد الرسولﷺ لسراقة بأنه سيلبس سواري كسرى وقد تحقق هذا الاستشراف في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ فَلَمَّا أُتِيَ عُمَرﷺ بِسِوَارَيْ كِسْرَى وَمِنْطَقَتِهِ وَتَاجِهِ دَعَا سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُمَا، وَكَانَ سُرَاقَةُ رَجُلا أَزَبَّ كَثِيرَ شَعْرِ السَّاعِدَيْنِ، وَقَالَ لَهُ: ارْفَعْ يَدَيْكَ. فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للَّه الَّذِي سلبهما كسرى ابن هُرْمُزَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: أَنَا رَبُّ النَّاسِ، وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ بْنَ

---

[١] كتاب مناقب الأنصار، بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺوَأَصْحَابِهِ إِلَى المَدِينَةِ، برقم(٣٩١١)٥/ ٦٢.

مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيٌّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، وَرَفَعَ بِهَا عُمَرُ ﷺ صَوْتَهُ، وَكَانَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ شاعرا مجوّدا وهو القائل لأبى جهل:

أَبَا حَكَمٍ وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا ... لأَمْرِ جَوَادِيَ إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ

عَلِمْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهُ[1]

ومن مجموع ما تقدم يتبين لنا إن استشراف المستقبل عند الهجرة النبوية في قصة سراقة بن مالك هي من دلائل النبوة.

ثانياً: استشراف الرسول ﷺالمستقبل في غزوة الاحزاب

في السنة الخامسة للهجرة جاء الأحزاب لغزو المدينة وقد استفاد النبي ﷺ والصحابة من تجربتهم فيما أصابهم من خسائر فادحة في غزوة أحد لذلك كان الرأي عدم الخروج خارج المدينة لقتال الأحزاب فأشار النبيﷺ بحفر خندق حول المدينة آخذاً برأي سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ ﷺ وأثناء حفر الخندق اعترضت صخرة عمل الصحابة فكانت مناسبة لاستشراف المستقبل وفي ذلك روى سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ ﷺ فقال ضَرَبْتُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ الْخَنْدَقِ، فَغَلُظَتْ عَلَيَّ صَخْرَةٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺقَرِيبٌ مِنِّي، فَلَمَّا رَآنِي أَضْرِبُ وَرَأَى شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيَّ، نَزَلَ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ مِنْ يَدِي، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً لَمَعَتْ تَحْتَ الْمِعْوَلِ بُرْقَةٌ، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّالِثَةَ، فَلَمَعَتْ تَحْتَهُ بُرْقَةٌ أُخْرَى. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ لَمَعَ تَحْتَ الْمِعْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ؟ قَالَ:(أَوَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ يَا سَلْمَانُ؟) قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ:(أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمَنَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ).

---

[1] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر،٢/ ٥٨١ وما بعدها.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ، حِينَ فُتِحَتْ هَذِهِ الْأَمْصَارُ فِي زَمَانِ عُمَرَ وَزَمَانِ عُثْمَانَ وَمَا بَعْدَهُ: افْتَتِحُوا مَا بدا لكم، فو الّذي نفس أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، مَا افْتَتَحْتُمْ مِنْ مَدِينَةٍ وَلَا تَفْتَتِحُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺمَفَاتِيحَهَا قَبْلَ ذَلِكَ[١].

يتبين لنا من استشراف الرسولﷺ للمستقبل في غزوة الأحزاب عند ضربه الصخرة التي اعترضته كان يهدف إلى تثبيت أصحابه لتحريضهم على الدفاع عن المدينة وفي نفس الوقت فإنها تثبط المنافقين وفي ذلك روى الطبراني عن صحابي سمع من صحابي آخر عندما ضرب الرسولﷺ الصخرة ووعد بقُصُورَ فَارِسٍ وَالرُّومِ فَقَالَ عِنْدَهَا الْمُنَافِقُونَ: نَحْنُ نُخَنْدِقُ عَلَى أَنْفُسِنَا وَهُوَ يَعِدُنا قُصُورَ فَارِسٍ وَالرُّومِ[٢].

---

[١] ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٢١٩، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٦ م٣/ ١٩١، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار القلم – دمشق، ط/٨، ١٤٢٧هـ .٢ / ٢٧٧ ـ ٢٧٩، السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار ابن كثير – دمشق، ط/١٢، ١٤٢٥ هـ، ص٣٥٠، السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ،د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط/٦، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م٢/ ٤٢٠.

[٢] ينظر: المعجم الكبير، برقم(١٢٠٥٢)، ١١/ ٣٧٦.

وهؤلاء المنافقون هم الذين قال الله ﷻعنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [1] .

قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ : قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أي من المنافقين يَوْمَ الْخَنْدَقِ يعدنا محمد (ﷺ) فتح قصور اليمن وفارس والروم ولا يستطيع أحدنا أن يبرز إلى الجلاء حتى يوضع فيه سهم هذا والله الغرور [2] .

وقد تحققت هذه البشارة عند اتساع الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ .

ثالثاً: استشراف الرسول ﷺ للمستقبل عند اسلام عدي بن حاتمﷺ

استشرف الرسولﷺ المستقبل عندما جاء عدي بن حاتم إلى المدينة المنورة وأعلن إسلامه أمام الرسولﷺ حيث أراد الرسولﷺ أن يبشر المسلمين إلى مستقبل هذا الدين وظهوره على الأمور الأخرى من خلال حديثه مع عدي بن حاتم ﷺحين قال له الرسولﷺ: (لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِي هَذَا الدِّينِ مَا تَرَى من حَاجتهم، فو الله لَيُوشِكَنَّ الْمَالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتَّى لَا يُوجد من يَأْخُذهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ

---

[1] الأحزاب: ١٢.

[2] ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤٧٧وما بعدها، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٩/ ٣٨، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، ٨/ ١٤، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، ٣/ ٤٦٢، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحاربي ، ٤/ ٣٧٣، زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ، ٣/ ٤٥١، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، ٢٥/ ١٦٣، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ٧/ ٩٤.

عَدُوِّهِمْ وَقلة عَددهمْ، فو الله لِيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالْمَرْأَةِ تَخْرَجُ مِنْ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتَّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ، لَا تَخَافُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ فِيهِ أَنَّكَ تَرَى أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيْرِهِمْ، وَاَيْمُ اللَّهِ لَيُوشِكَنَّ أَنَّ تَسْمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ)[١]، فأسلم وحسن إسلامه، وشارك في فتح بلاد فارس، ورأى المرأة تخرج من أقاصي البلاد إلى الكعبة وهي امنة، وكان يقول: وايم الله ولتكونن الثالثة[٢].

يبدو لنا من محاورة الرسولﷺ مع عدي بن حاتم رضي الله عنهأن يبعث فيه روح الطموح والثقة العالية بهذا الدين وأن لا يقع في اليأس والقنوط وأن ينظر للمستقبل بنظرة إيجابية لأن عدي بن حاتم اختلطت عليه الأمور وأراد الرسولﷺأن يكون أكثر وضوحاً معه نستخلص عدة نقاط منها:

١. إن عدي بن حاتم رضي الله عنهيمنعه من الإسلام هو قلة المال من المسلمين وكثرته عند أعداء الإسلام وكذلك ضعف قوة المسلمين وقوة أعداء المسلمين من الفرس والروم.
٢. في هذه الظروف التي يمر بها المسلمون يخبر الرسولﷺ عدي بن حاتم رضي الله عنه بان ما يراوده من هواجس تمنعه من الإسلام سوف تزول

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام ، ٥٨١/٢، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، ١٢٦/٤، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شُهبة ٢/ ٥٤٩ وما بعدها.

[٢] السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شُهبة ،٢/ ٥٥٠.

بالمستقبل وإن المال سيفيض حتى لا يوجد من يأخذه وإن المسلمين سوف يفتحون البلاد حتى إن المرأة تخرج من العراق تزور البيت الحرام لا تخاف وسيفتح المسلمون بابل.

٣. إن النص النبوي مع ما يحمله من استشراف يبشر بمستقبل هذا الدين أدى إلى استقرار نفس عدي بن حاتم ﷺ الخائفة وتعالت على الواقع بكل سلبياته فأعلن إسلامه.

٤. إن إخبار الرسولﷺ بالنظرة المتفائلة إلى المستقبل تبشر المسلمين بأن هذا الدين سينتصر حتى لا يتسلل اليأس إلى نفوسهم.

مما تقدم من استشراف المستقبل في السيرة النبوية ان قراءة الرسول ﷺ للمستقبل قد تحققت لانه وحي يوحى﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [1] وهذا ينعكس على ما حققه من انتصارات وتاسيس دولة اسلامية في الجزيرة العربية توسعت هذه الدولة خارج الجزيرة في عهد الخلفاء الراشدين لأنهم ساروا على ما خططه لهم رسول الله ﷺ من استشراف المستقبل حتى بلغت الدولة الإسلامية الأندلس شرقاً وفرنسا غرباً، ليكون الرسولﷺ قدوة لقادة المسلمين في الوقت الحاضر ليستشرفوا المستقبل .

المطلب الخامس: استشراف المستقبل عند المفسرين

---

[1] النجم: ٣ – ٤ .

من بعض السنن التي تشهد على استشراف المستقبل عند المفسرين ما يلي:

أولًا: سنة التغيير: يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [1] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ فَيُزِيلُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ بِظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَاعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَحِلَّ بِهِمْ حِينَئِذٍ عُقُوبَتُهُ وَتَغْيِيرُهُ[2]. ويزيد

---

[1] الرعد: من الآية: ١١.

[2] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٣/ ٤٧١، وينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط/١، ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م،٥/ ٢٧٨، تفسير الماوردي = النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان،٣/ ٩٩، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ،٤/ ٣٠٢ وما بعدها، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري ، ٢/ ٥١٧، مفاتيح الغيب ، الرازي ، ١٩/ ٢٠، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ) ، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط/١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م،٢/ ١٤٥،

القرطبي المعنى وضوحاً بقوله: فَلَيْسَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عُقُوبَةٌ إِلَّا بِأَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْهُ ذَنْبٌ، بَلْ قَدْ تَنْزِلُ الْمَصَائِبُ بِذُنُوبِ الْغَيْرِ، كَمَا قَالَ ﷺ وَقَدْ سُئِلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[1]

لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن ، ٨/٣، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ، ٦/ ٣٦٣، تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير،٤/ ٣٧٧، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،١٠/ ٢٩٢، الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الفكر – بيروت، ٤/ ٦١٦، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ،ص ٤١٤ ، التحرير والتنوير ابن عاشور، ١٣/ ١٠١، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ، ٢/ ١٠٤، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، ٢/ ٣١٨، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط/٢، ١٤١٨ هـ، ٨/ ١٤١.

[1] تمام الحديث : عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺدَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا)، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخُبْثُ) ، متفق عليه : صحيح البخاري ، كِتَابُ الفِتَنِ، بَابُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ،برقم(٧١٣٥)٩/ ٦١، ومسلم، بلفظ: عَنْ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺيَوْمًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، يَقُولُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»

[1] . وعليه، فكل ما يصل إلى الْإِنْسان هو ما كان يقتضيه استعداده، وسؤاله بلسان حاله. فإذا أنعم الله على عبده نعمة ظاهرة أو باطنة؛ فذلك لسلامة الاستعداد، وبقاء الخيرية فيه، فإن الله لا يغيرها إلا إذا أفسد استعداده، بتغيير قبوله للصلاح، بالاحتجاب والابتعاد عن الخير إلى الشر، وما ذلك إلا لحصول الران، وغلبة الظلمة عليه، بحيث.لم يبق له مناسبة للخير، ولا إمكانية صدروه منه، فيغيرها من النّعمة إلى النّقمة، عدلاً منه

وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ، وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ) كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ اقْتِرَابِ الْفِتَنِ وَفَتْحِ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، برقم (٢٨٨٠)٤/ ٢٢٠٨. و(الخبث) الفسوق والفجور والمعاصي، ينظر: المُعْلم بفوائد مسلم، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي (المتوفى: ٥٣٦هـ)، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، ط/٢، ١٩٨٨ م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١م، ٣/ ٣٦٧، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ، ١٨/ ٣، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ، ١٠٩/١٣.

[1] الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي،٩/ ٢٩٤.

وجوداً، لا ظُلْماً وجوراً[١]. لقد أنعم الله على الأمة العربية بنزول القرآن فأنار بصائرها، وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها، مما جعل سلطانها يمتد إلى سائر من حولها، فملكت دولة الفرس التي قتلتها البطنة والنعيم، وامتدت إلى بلاد الروم فغلبتها، وحلت محل الدولتين العظمتين، ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم، وكبلتها الشهوات، فجاءها التتار من المشرق، والفرنجة من المغرب، فصارعوها فصرعوها، فنامت إلى حين، ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكانتها [٢] .

---

[١] ينظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه – بيروت، ط/١، ١٤١٨ هـ، ٥/ ٣١١.

[٢] ينظر : الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب المكونات وغرائب الآيات الباهرات ، طنطاوي بن جوهري (المتوفى: ١٣٥٨هـ)، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٣٥ ، ٦٦/١.

ويقول الشعراوي: الفساد في الدنيا ناشي مما أحدثه البشر على غير منهج الله ﷻ، فالأمر الفاسد إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ﷻ [1] .

ولعل خطورة تفريط الأمة في الأوامر الشرعية التي كلّف الله ﷻ بها عباده راجع إليها أجمع. وللمحقق أن ينظر إلى العقوبة التي عوقب بها بنو إسرائيل لتركهم العهد الذي عليهم تجاه نبي الله موسى عليه السلام إنه بقاء الأمة في العذاب والتيه، وعدم الهداية إلى طريق الخلاص من عذاب الفرعون، وتأمل أن هذا كله كان مع وجود القائد المصلِح، وهو النبي المرسل عليه السلام. وعليه، فإن الخلل الحاصل في أمتنا قد لا يكون من عدم وجود القائد، المتمثل في شخص الرسول ﷺ ،بل من عدم استجابة الأمة، فكم من عهد وعهد نقضته الأمة الإسلامية بالأمس واليوم، وبعد هذا تريد الأمة أن تخرج

---

[1] تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٧٧م، ٥/ ٢٨٦٠.

من هذا التيه، قبل إصلاح علاقتها مع ربها، هيهات هيهات، قال ﷻ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[1] .

وقد بين اللهﷻ أن سبب هذا التغيير في الأمة الإسلامية هو ذلك الوهن الذي تَولد عن حب الدنيا، وكراهية الموت، وطاعة وموالاة الكافرين على المؤمنين، ما أدى بهم إلى التفرق والتشرذم، فكان الجزاء المستحق هو نزع المهابة من قلوب الأعداء، فقال ﷺ: (ولينزعن من قلوب عدوكم المهابة منكم)[2] ثم الانقلاب والنكوص على الأعقاب، وفي النهاية الخسران المبين[3]. وفي أيامنا هذه، فرطت الأمة في طاعة ربهاﷻ، وخالفت سنة

---

[1] الرعد: من الآية: ١١.

[2] رواه أبو داود ، في سننه ولفظه: عن ثوبانَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ (يوشِكُ الأُممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها) فقال قائل: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ). فقال قائلٌ: يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟ قال: (حبُّ الدُنيا وكراهيةُ الموتِ) كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، **برقم** (٤٢٩٧)٦/ ٣٥٤وما بعدها.

[3] ينظر: **زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي،(د.ط،د.ت) ٣/ ١٤٥٠ وما بعدها.**

نبيها ﷺ،لاسيما الحركات التي تَدعي الالتزام بدين الله تبارك وتعالى، فقد امتثلت مثل هذه الحركات الهدي الظاهري للإسلام، من لحية وحجاب، دون تلمس وترسم القواعد التي بني عليها المنهج الإسلامي؛ لذا نراها بسبب بعدها عن هدي ربهاﷻ؛ ترسخُ في براثن الجهل والتخلف والتشرذم، وما الازدراء العالمي الموسومة به أمتنا الإسلامية، إلا علامة على السخط والعقاب الإلهي لها، فليس هناك دم أرخص من دماء المسلمين. وليس هناك انتهاك لحرمات أحد إلا حرمات المسلمين، ولعل ما يمثل ذلك هو ما يحدث في بلادنا المسلمة في شتى أنحاء العالم. وبالجملة، فإنه ليس للأمم من عزة ومنعة؛ إلا بالتجافي عن اللذات، والتبرؤ من الشهوات، والبعد عن البطنة، والتقليل من دواعي الترف والنعيم. ولن يتأتى ذلك إلا بالرجوع إلى العقيدة السليمة، وتصحيح العبادات، وأدائها على النحو المطلوب. يقول طنطاوي جوهري: (واعلم أنه لا سبيل لرقي المسلمين إلا بأمر واحد، وهو تعميم التعليم، ونشر العلوم الطبيعية والرياضية والتأمل في عجائب

السماوات والأرض، مع التحلي بالدين، فإنهم بذلك تتفق مشاربهم وتَقُوم قامتهم، فالعلوم وتعليمها هي الدواء، وما عدا ذلك فهو هراء وهواء) [١].

مما سبق يمكن القول، بأن اللهﷻ لا يغير نعمة أنعمها على أحد من عباده ابتداء (إلا إذا كان ذلك نوع من الابتلاء) وإنما يكون التغيير للنعم بسبب تغير النفوس المنعم عليها، وأنه قد يقع العقاب على الجميع، حيث لا يقتصر على المغير لنعم الله ﷻ فحسب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين؛ وذلك إذا لم يأتمر الناس فيما بينهم بالمعروف وينتهوا عن المنكر، ولا بد في نزول هذا التغيير من توبة وخضوع للهﷻ .

ومن فوائد دراسة سنة التغيير: ولعل دراسة هذه السنة تُعطينا الكثير من النتائج والفوائد، والتي منها:

١. ان الأمة الإسلامية هي المسؤولة مسؤولية كاملة عن واقعها، وأنها إنما أُوتيت من داخلها، فليس الكيد والتآمر الخارجي هو السبب؛ إنما كان ذلك نتيجة منطقية للتغير الذي وقع بنفوس رجالاتها.

---

[١] الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ٤/٢٠٧.

٢. ضرورة القراءة المتأنية لِما في داخل الأنفس؛ لاستكشافها واستنهاض هممها، والأخذ بذمامها لإحداث عملية تغيير شاملة، وذلك بالبحث عن مكْمن الداء،والسعي الجاد لعلاجه وإصلاحه.

٣. التغيير ممكن، والواقع المعاصر ليس أمرا محتم ولازم ؛ فالأمة يمكن أن تنتقل من حالة الركود التي هي فيه، إلى عالم أفضل. غير أن المشكلة التي تعاني منها، أنها تُلقي بالتبعية على الجيل السابق أو اللاحق. فاللهﷻ يرد على كل من يسلك مثل هذا المسلك، قاطعا الحجة عليه بقوله ﷻ : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧ ﴾[1] ، فقد يقول بعض الناس ممن يرون الواقع المعاصر أمر يجب التسليم له، متعللين بقولهم، لو أن الله قد خصنا بهذا الكتاب مثلما قد خص به من كان قَبلَنَا؛لكنا أهدى منهم، فها هو الكتاب بين أيديكم، وقد انقطعت به حجتكم، فهو قائم يشهد عليكم بأن ما تدعونه لا حقيقة له. فهو باطل، وكأنكم تنتظرون الخوارق لتصدقوا بما فيه. ولعل من هذه الخوارق، انتظار البطل القادم من الماضي، والذي يقوم بحل كل مشاكلكم، ولهذا فأنتم دائمي التساؤل: أين فلان وفلان من الناس؟ وكأن هؤلاء قد شعروا

---

[1] الأنعام: ١٥٦ – ١٥٧.

بأنهم غير قادرين على أن يصنعوا شيئًا، ولا أن يتقدموا خُطوة، وأن هذا الواقع الذي تعاني منه الأمة لا يمكن أن يتغير إلا إذا جاء هذا الفارس الموهوم، الذي ليس له وجود إلا في خيالكم أيها القاعدين الناكصين.

٤. ربط قضية التغيير بركن مهم من أركان الإيمان، ألا وهو الإيمان بالقضاء والقدر؛ فلا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وقد جعل اللهﷻ لكل شيء سببا وقدرا. وعليه، فوجب أن يسلك الناس فعل الأسباب المرتبطة بالنتائج. إن التغيير الذي قاده النبيﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وقد استطاع أن يصنع رجالًا عظاما، انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في الشكل والمضمون على وجه سواء، فقد نقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[١] .

ولا شك أن النفس فيها من الأفكار والتصورات والمشاعر ما فيها. والأمر في تغير هذه الأفكار، وتلك التصورات، أمر ليس بالسهل اليسير، فهو يحتاج في البداية إلى إيمان شديد بوجوب هذا التغيير، كما يفتقر إلى الشعور والإحساس بالقدرة على ذلك، مع وجود الإرادة والعزيمة، اللتين لا يصيبهما أدنى فتور أو خمول.

---

[١] ينظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، توفيق محمد سبع ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ،مصر ط/١(د.ت) ص ٣٦٧ .

وعليه، فإن الإيمان والإحساس بحتمية التغيير في ظل الإرادة القوية الفاعلة، كل ذلك يعد أصلًا وأساسا لمنظومة واحدة متكاملة. تُسمى: (إرادة التغيير) ولعل البعض يتعجب، حينما يرى أمما لا تؤمن بالله ﷻ تنهض وتتقدم في جميع المجالات– كدول أوربا– في زمن قياسي، تُرى لماذا لا يكون ذلك لأصحاب العقيدة الصحيحة في هذه العصور؟.!

وللإجابة على هذا السؤال، يجب أن نُدرك أولًا: أنه بقدر ما توافر لهذه الأمم من اكتمالٍ في المنظومة التغييرية الداخلية النفسية؛ من إيمان، وإحساس، وإرادة قوية وفاعلة، وفق الإمكانات المتاحة لهم، بقدر ما استطاعوا أن يخوضوا معركتهم ضد التقليد، والإصرار على التغيير؛ لذا فقد أسسوا حضارة مادية مبهرة. غير أنه بقدر إغفالهم للناحية الروحية (الدينية أو القيمية) في منظومة تغييرهم، بقدر ما كانت حضاراتهم بعيدة كل البعد عن صلتها بالسماء.

ثانياً: سنة عدم إصلاح عمل المفسد:

قال ﷻ : ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [1] .

يقول الطبري مستشرفًا معنى الآية: (أَنَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ مَنْ سَعَى فِي أَرْضِ اللَّهِ بِمَا يَكْرَهُهُ وَعَمِلَ فِيهَا بِمَعَاصِيهِ) [2] ، ويؤكد ابن الجوزي على

---

[1] يونس: ٨١ .

[2] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٢/ ٢٤٤، وينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ، الزمخشري ، ٢/ ٣٦٣، مفاتيح الغيب ، الرازي ،١٧/ ٢٨٨، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، ٣/ ١٢١، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ٢/ ٣٥، لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن ،٢/ ٤٥٦، اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان،ط/١، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م١٠/ ٣٨٩، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ١٢٨٥ هـ، ٢/ ٣٢، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤/ ١٧٠، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ، ٢/ ٤٩١، فتح القدير، الشوكاني ، ، ٢/ ٥٢٩ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم

استشراف الطبري، بأن الله لا يترك الفاسد ممن سعى في أرضه بما يكره، حتى يتم عمله. بل يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه، بعدم تقويته وتكميله، فهو لا يجعل عمله نافعا له، ويحق الله الحق، أي يظْهِره ويمكِّنه بكلماته بما سبق من وعده بذلك[١] ، ويكشف السعدي عن أعلى درجات الفساد، وأن مآل صاحبه إلى الخسران والمحق، بقوله: (فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!! وهكذا كل مفسد عمل عملا واحتال كيدًا، أو أتى بمكر، فإن عمله سيبطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق)[٢] .

ويقول الشعراوي: الفساد في الدنيا ناشي مما أحدثه البشر على غير منهج الله ﷻ، فالأمر الفاسد إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ﷻ [٣] .

والسبع المثاني، الألوسي ،٦/ ١٥٧، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي، ١١/ ٢٤١.

[١] ينظر : زاد المسير في علم التفسير، ٢/ ٣٤٣.

[٢] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٧١.

[٣] **تفسير الشعراوي – الخواطر، ٥/ ٢٨٦٠.**

ولعل خطورة الفساد تكمن في أنه يصيب تصورات الناس وأفهامهم، كما يصيب حياتهم وأجسادهم، وفي تصوري أن كل فرد فضلًا عن أن يكون راعيا، يرضى لنفسه حكما في أمر لا يوافق شريعة الله تعالى من مقاصد ومصالح، وينبذ ذلك وراءه راضيا، فهو من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؛ ذلك وأن صلاح هذا الكون بالقوانين التي تحكمه، فحين يطبق النّاس منهج الله تعالى في أرضه فإن حياتهم تصلح به، فالمنهج إنما شرع كي ينظم حياة البشرية لتصبح الحياة صالحة ومفيدة لهم، فإذا أُستثني المنهج الإلهي تصادمت الأهواء والأغراض، فيحدث على إثر ذلك الخلل والفساد، وبالتبعية يحدث الانهيار والخراب.

ولما كان ذلك كذلك، كان عاقبة الشخصية المفسدة إلى زوال، فاللهﷻ يمهل ولا يهمل، فهذا فرعون موسى الفاسد كان سببا في أن ينزل الله تعالى عقابه بأهل مصر، وقد أخبرنا القرآن الكريم عنهم ليكونوا عبرة لكل فاسد، فلا يقع فيما وقع فيه سلفه؛ لأن سنة اللهﷻ واحدة لا تبديل فيها ولا تحويل.

و الحياة اليوم يرى أن الفساد قد طال معظم جوانبها. فساد في الأفكار والتصورات والأخلاق، أورث خللًا في السلوكيات، فالقلق، والاضطراب النَفْسي، وانتشار الجرائم، والشذوذ الجنسي، ما هو إلا انهيار لأخلاق وقيم الأمة الإسلامية. فساد في الإعلام الذي أصبح وليس له هدف إلا الهبوط بالإنسان إلى أحط المنازل. فساد في الاقتصاد، بنشر الدعوة إلى الربا، والبعد عن تنمية المال تنمية حقيقية، وما يتبع ذلك من فساد وشر. فساد في النّظام الإداري، وهو ما أورث انتشار الرشوة والمحسوبية واستبعاد الكفاءات.

ولمنع كل هذا الفساد لا بد من سنة المدافعة،﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض

[1] البقرة: من الآية: ٢٥١.

وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم، لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم [١] .

ومن فوائد دراسة سنة إصلاح عمل الفاسد:

١. التأكيد على أن الله تعالى كما لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فإنه تعالى يضيع عمل من سعى في الأرض فسادا، فلا يجعله نافعا له، فلا يتمه ولا يكمله.

٢. ضرورة توظيف هذه السنة في صياغة الأسس والقواعد التي يمكن من خلالها تقييم الأعمال، بين صالحة وفاسدة، وبذلك يمكن محاسبة ومعاقبة المفسد، وإثابة المصلِح، مما يساعد الأمة الإسلامية على النهوض والترقي. وبالتالي إعانتها على استعادة دورها في قيادة العالم.

٣. التأكيد على مواجهة وجوه الفساد المختلفة، في أي وقت، وفي كل مكان، ومن كل الأشخاص، بغض النظر عن كونه مسؤولًا أو غير مسؤول، إذ إن الجميع مسؤولون أمام الله تعالى.

ثالثًا: سنة الاستخلاف والتمكين:

---

[١] ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ١/ ١٥٢.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [1].

في الآية الكريمة ثناء، وبشارة، ونذارة، فالثناء على صلحاء ملوك الأرض، من الأنبياء الملوك، مثل: سيدنا يوسف عليه السلام، وداود عليه السلام، وسليمان، عليه السلام والملوك من غير الأنبياء، ممن استخلفهم الله ﷻ في ملكه، مثل ذي القرنين، وغيره، ثم الخلفاء الراشين المهدين الذين استخلفهم الله تعالى، ومكن لهم في الأرض، فقاموا بحق هذا الاستخلاف على الوجه الأكمل. والبشارة تشمل كل من احتذى حذوهم، وسار على نهجهم وطريقتهم. والنذارة لكل من كفر نعمة الاستخلاف، بعدم الاكتراث، وقلة الحفاظ، وترك القيام بالواجبات، فهم المارقون، الخارجون عن طاعته ﷻ. يقول الطبري في معنى استشراف الآية: (لَيُوَرِّثَنَّهُمُ اللَّهُ أَرْضَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَيَجْعَلُهُمْ مُلُوكَهَا

---

[1] النور: ٥٥ .

وَسَاسَتَهَا. ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1]،[2]. رَوَى الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، (قَالَ: مَكَثَ رسول الله ﷺبِمَكَّةَ عَشْرَ سنين- بعد ما أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ- خَائِفًا هُوَ وَأَصْحَابُهُ، يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ

---

[1] النور: من الآية: ٥٥

[2] تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن،١٧/ ٣٤٦. وينظر: بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، تحقيق: د.محمود مطرجي ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ط،د.ت) ٢/ ٥٢١ ،الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، . ١١٤/٧وما بعدها، تفسير الماوردي ، النكت والعيون، ١١٨/٤، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ، ٣/ ٤٢٥، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٣/ ٢٥١، مفاتيح الغيب ، الرازي ،٢٤/ ٤١٤، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، ٤/ ١١٢، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ١٢/ ٢٩٩، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ٢/ ٥١٥، لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن ، ٣/ ٣٠٢، تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، ٦/ ٧٣، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي ،٤/ ١٩٥، اللباب في علوم الكتاب، النعماني ، ١٤/ ٤٣٧، الدر المنثور، السيوطي ، ٦/ ٢١٥ـ ٢١٧، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ،٦/ ١٩٠ وما بعدها، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة ، ٤/ ٦١، التحرير والتنوير ابن عاشور،١٨/ ٢٨٦ وما بعدها، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري،٣/ ٥٨٣ .

سُبْحَانَهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً. ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ: يُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ، وَيُمْسُونَ فِي السِّلَاحِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: لَنْ تَلْبَثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فيهم حديدة. فأنزل اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [1] فَأَظْهَرَ اللَّهُ تعالى نبيه ﷺعَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَوَضَعُوا السِّلَاحَ وَأَمِنُوا. ثُمَّ قَبَضَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُﷺ، فَكَانُوا آمِنِينَ كَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ، وَكَفَرُوا النِّعْمَةَ، فَأَدْخَلَ اللَّه تعالى عَلَيْهِمُ

---

[1] النور: ٥٥ .

الْخَوْفَ، وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا بِهِمْ)[١] قال الضحاك: هذه الآية في الخلفاء الأربعة: أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم وهم الأئمة المهديون ، وقد قال النبي ﷺ: (الخِلاَفَةُ بَعْدِي ثَلاَثونَ سَنَةً)[٢]. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ، عَنْ سَفِينَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً» ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ لِأَبِي بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَلِعُمَرَ عَشْرًا، وَلِعُثْمَانَ اثْنَيْ عَشَرَ، وَلِعَلِيٍّ سِتًّا)[٣]

---

[١] أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤١١ هـ، ص ٣٣٨.

[٢] تفسير الماوردي = النكت والعيون، ٤/ ١١٩.

[٣] مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)،وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط/١، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م) ، برقم(٣٨٢٨)٩/ ٢٨٠ ، المعجم الكبير، الطبراني ، برقم(١٣٦)١/٨٩ ، وبرقم(١١٦٩)٧/٨٣، جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)،تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط/١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م، برقم(٢٣١٣)٢/١١٦٩، موارد الظمآن إلى

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قال في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .... ﴾[1] نَزَلَتْ فِي الْوُلَاةِ[2].

وكأن الآية تحمل في أطوائها إخبار عن وقوع الأمة بين حالتين. الأولى: هي ما ذُكرت في صدر الآية، من استخلاف الله تعالى وتمكينه للجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺفي بداية الإسلام، قال اللهﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .... ﴾ حيث الإيمان الكامل، وشكر النعمة على العطاء، بالمحافظة عليها، وصلاح النفس، وبقاء الخيرية بالنية على

زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الدّاراني – عبده علي الكوشك، دار الثقافة العربية، دمشق، ط/١، (١٤١١ – ١٤١٢ هـ) = (١٩٩٠ م –١٩٩٢ م)، كتاب الامارة، باب الخلافة ، برقم(١٥٣٤)٥/٩٦

[1] النور: من الآية:٥٥.

[2] تفسير القرآن العظيم ، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط/٣، ١٤١٩ هـ،٨/ ٢٦٢٨.

الصلاح والإصلاح. والحالة الأخرى: وهو ما أخبرت به الآية في عجزها، من عدم استخلاف اللهﷻ وتمكينه للأمم المتأخرة – إلا بشروط الاستخلاف والتمكين، وهي أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر – وهم المعنيون، بقولهﷻ: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ حيث الإيمان الساذج، وكفران النعمة، بعدم المحافظة عليها، وغياب صلاح النفس، وذهاب النية في الإصلاح.

قال ابن العربي: (هَذَا وَعْدٌ عَامٌّ فِي النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ، وَإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ، وَعُمُومِ الشَّرِيعَةِ، بِنَفَاذِ الْوَعْدِ فِي كُلِّ أَحَدٍ بِقَدْرِهِ وَعَلَى حَالٍ، حَتَّى فِي الْمُفْتِينَ وَالْقُضَاةِ وَالْأَئِمَّةِ)[1] . يقول الشنقيطي: وَالْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْعِلْمِ الصَّالِحِ سَبَبٌ لِلْقُوَّةِ وَالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ وَنُفُوذِ الْكَلِمَةِ[2] ؛ ويقول أيضا: وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةَ تَشْمَلُ أَصْحَابَ رَسُولِ

---

[1] أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/٣، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، ٣/ ٤١٢.

[2] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥/ ٥٥٣.

اللَّهِ ﷺ، وَكُلَّ مَنْ قَامَ بِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى[١].

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ " وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: " قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ)[٢] .

غير أن المسلمين لا يكتب لهم النصر على أعدائهم بالتكافؤ في العدة، والعتاد، أو التوازن الإقليمي والعالمي – وإن كان ذلك ضروريا – وإنما جعل الله النصر نظير البعد عن الدنيا، وحب ملاقاته سبحانه، فالبعد عن الدنيا دليل الإيمان، وحب ملاقاة اللهﷻ دليل العمل الصالح، وكلاهما طريق النصر والتمكين في الأرض.

---

[١] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥/ ٢٦٦.

[٢] مسند الإمام أحمد بن حنبل، برقم(١٦٩٥٧)٢٨/ ١٥٤وما بعدها،

عن ثوبانَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (يوشِكُ الأُممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها) فقال قائل: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيلِ، ولَينْزِعَنَّ اللهُ مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ). فقال قائلٌ: يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟ قال: (حبُّ الدُنيا وكراهيةُ الموتِ)[1] .

فهذا الحديث يصور لنا حال المسلمين في أيامنا هذه، فهم كثر، كما يصفهم الرسولﷺ ،لكن كثرتهم لا تغني ولا تسمن، فهم غثاء كغثاء السيل، نزع الله من قلوب عدوهم المهابة، وزرع في قلوبهم الوهن. وهم بذلك قد تخلوا عن كل أسباب النصر.

يقول طنطاوي جوهري: تحمل الأمة الإسلامية اليوم كفرا غير الكفر بالدين، وهو كفر النعمة، المتمثل في خلودهم للراحة، وتفريطهم في أمر الخلافة، فلما لم تكن الأمة متخلقَّة بخلق الله ﷻخلعهم من ملكه، وأقصاهم، فهذا هو معنى قولهﷻ: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ كما أنه

---

[1] سبق تخريجه.

يستشرف ويتنبأ بواقعها المستقبلي، فيقول: والأمة لا يمكن أن يقوم لها كيان إلا بالاتحاد والعلم، فالاتحاد بين عربيهم، وأعجميهم، وأبيضهم وأسودهم، والعلم بما في ملكوت السماوات، مما ذرأ اللهﷻ فيهما، من عجائب خلقه وبدائع حكمته[١]

ومن فوائد دراسة سنة الاستخلاف والتمكين، منها:

١. الاستفادة من هذه السنة في معرفة الأسباب الموجبة للنصر والتمكين والهزيمة، بعد دراستها دراسة وافية مستفيضة. وبالتالي، رفض كل مفردات الهزيمة والنكوص على الأعقاب، والأخذ بموجبات النصر والتمكين.

٢. وضع برنامج علمي عملي، محدود بوقت معين، بغية تحقيق الهدف المنشود؛ وذلك من خلال المنظور القرآني، ووفق هديه الحكيم، قال ﷻ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

[١] ينظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم،١١٧/١٢ و١١٩.

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[1] .

المبحث الثاني

أهمية استشراف المستقبل والعلاقة بيننها

المطلب الأول : أهمية استشراف المستقبل

من المتفق عليه في علوم اليوم أن الدراسات المستقبلية –استشراف المستقبل– أصبح علما ضروريا ومهما في حياة الأمم أو في حياة الأفراد ، وهو كذلك

---

[1] الأنفال: ٦٠.

مهم لمن أراد أن يصنع مستقبله بنفسه ويقرر مصيره بيده ، دون أن يكون تبعا لغيره يرسمون له ما ينبغي أن يكون عليه في حياته وبالتالي يكون تابعا بدل أن يكون سيدا .

وتبرز أهمية هذا العلم بما يقدمه من تصورات لبناء مستقبل أفضل ، وهو من خلال ذلك كله يمر بمراحل تعني في مجملها النهوض والتحرر والانعتاق من الجهل والتبعية ، وبالتالي العمل على امتلاك الأدوات التي تعين على وضع التصور المراد.

إن أهمية استشراف المستقبل، لا يكاد يختلف عليها اثنان، غير أن الإرادة والعزم والتصميم هو ما يشكل نوازع العمل ويوقظ الهمم التي تبني وتخطط.

لقد أدرك العالم الغربي أهمية هذا العلم ودوره في صياغة السيناريوهات المستقبلية ، وبالتالي ساعدهم هذا في وضع الخطط الإستراتيجية القريبة والمتوسطة والبعيدة المدى لامتلاك زمام المبادرة لإدارة العالم وفق ما امتلكوه من أدوات العلم والتكنولوجيا ، ويكفي أن أشير وفي الإحصاءات المنشورة أن عدد المراكز الاستشرافية في العالم الغربي يزيد عن ٢٥٥ مركزاً في السنوات

العشر الماضية ، ومما يزيد في تبيان أهمية هذا العلم أنه وفي غضون السنوات القليلة الماضية أصبح في أمريكا ، مثلا، في الأسبوع يتم افتتاح من ٢ إلى ٥ مراكز متخصصة، وأن المعرفة تتضاعف كل ٧–٨ سنوات ، وأن هناك مقالاً علمياً ينشر في كل دقيقتين [١] ، وفي هذا ما فيه من الإشارة إلى الأهمية القصوى لهذا العلم.

ومما يؤسف له هنا أن هذه الدراسة كشفت من خلال البحث في هذا المجال أن عدد المراكز الاستشرافية في العالم العربي والإسلامي لا يتجاوز عدد أصابع اليدين في أحسن الأحوال ، وهذا مؤشر على عدم العناية بهذا العلم ، وعدم إدراك أهميته وبالتالي النكوص عن استلام الدور المناسب والتصدي لهذا الواجب ، والملفت للنظر هنا أن ٩٧% من الإنفاق على الدراسات المستقبلية يتم في الدول المتقدمة ، والتي أدركت أهمية هذا العلم

---

[١] ينظر: مدخل إلى الدراسات المستقبلية في العلوم السياسية، وليد عبد الحي،الجامعة الأردنية، ط/١، ٢٠٠٢ م، ص ٩ .

ودوره ، في حين أن ٣% فقط ينفق على مثل هذه الدراسات في دول العالم الثالث [١] .

وتكمن أهمية هذا العلم بالإضافة إلى ما مر في أنه:

١. يعمل على استقرائنا للماضي ، وما في ذلك من فائدة في بيان أحوال الأمم التي سارت وفق شرع الله تعالى وتلك التي خالفت ، وبالتالي وضوح المصير في الحالتين ، قال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [٢] يحث على استقراء الحاضر، قال ﷻ : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٣] ، وضرورة الوقوف على عناصر الضعف وأسباب انهيار الأمة ونكوصها عن قيادة وإدارة شؤون

---

[١] ينظر: مدخل إلى الدراسات المستقبلية في العلوم السياسية، وليد عبد الحي ، ص ١٠ .

[٢] غافر: ٨٢.

[٣] الأنعام : ١١ .

العالم بعد أن تسلمت هذا الدور ردحاً من الزمن ، قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[1] .

٢. يسهم في الاستعداد لكل ما هو جديد من مشكلات وتطورات ، ويضع الحلول المناسبة لها ، فيتم التهيؤ لمواجهتها ، قال الله تعالى :﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[2] ،وشتان بين من يقرأ الأحداث ويضع لها المقترحات المناسبة ، وبين من يعيش حياة الفوضى والغفلة والسكون.

٣. يعمل هذا العلم على وضع الأمور في نصابها فيكون مساعدا للمسلم في إعادة اكتشاف ذاته ، ودوره ، و موارده، و طاقاته ، ويدعوه بالتالي إلى برمجة نفسه بما يتناسب والوضع الجديد ، الذي كان غافلا أو متغافلا عنه قبل

---

[1] الكهف : ٥٤.

[2] الأنفال : ٦٠ .

استشرافه لهذا العلم ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

٤. يعمل هذا العلم على صياغة تصور للمستقبل من منظور القرآن الكريم ووضع الخيارات الممكنة وبالتالي اختيار ما يتناسب وكل حالة وظرف.

إن علماء الكون اليوم يكادون يجمعون على ضرورة وأهمية علم استشراف المستقبل ، لما له من دور في رسم التوقعات ،وافتراض المشكلات ، ووضع الاستراتيجيات المناسبة للتعامل مع الغد ومع كل جديد .

والقرآن الكريم يزخر بالآيات الكريمات التي توجه المسلم إلى ضرورة استشراف المستقبل ، والإعداد له ، والعمل على تحقيقه بالصورة التي أرادها الله ﷻ ، من ذلك على سبيل المثال قوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2] . ومنها قوله

---

[1] الملك : ٢٢ .

[2] الحشر : ١٨ .

ﷻ : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] ،وفي هذا ما فيه من دعوة الإسلام للناس إلى أن يبذلوا جهدهم ويعملوا بصرهم وبصيرتهم في حيثيات هذا الكون لاستشراف المستقبل المنشود.

وأيضا فإن علم استشراف المستقبل لا يعد تدخلاً في شؤون الغيب ، أو أنه تخرصات كما يحلو لبعض هواة الكسل والجمود أن يسموه ، انطلاقا من فهمهم القاصر لقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] .

---

[1] الأنعام : ١١ .

[2] الرعد : ٣ .

[3] لقمان : ٣٤ .

وعلى المسلمين اليوم أن يقوموا بواجبهم تجاه هذا العلم باعتباره أداة من أدوات الصراع في الزمن الحاضر ونحن مطالبون بالإعداد والاستعداد بكل ما أوتينا من قوة لامتلاك كل الأسلحة التي تعيننا للتمكين لهذا الدين ، تنفيذا لأمر ربنا تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[1] .

وفي استشرافنا للمستقبل من منظور القرآن الكريم نقدم خدمة للإنسانية هي اليوم في أمس الحاجة إليها ، وهي فيما يُرى ويُشاهد متعطشة للخروج من المآزق والمشكلات التي تفتك بها وتطيح بمقدراتها ، عوضا عن أننا نقوم بواجبنا ونؤدي رسالة نبينا ﷺالتي استأمننا عليها .

والمسلّم به هنا أن المسلم بما يتميز به من حمله للقرآن الكريم كمصدر أساس من مصادر معرفته، أقدر الناس بهذا القرآن الكريم على رسم تصورات المستقبل.

---

[1] الأنفال : ٦٠ .

إن منهج القرآن الكريم يربط ماضي البشرية بحاضرها ،وحاضرها بماضيها، ويشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها ،وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ومعارفهم وتجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا الإسلام، وكتابه القرآن الكريم ، الذي أخرجهم به الله تعالى من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وأنشأهم به نشأةً أخرى وخلق به منهم أمة تقود الدنيا .

إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم؛ فضلاً على الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها فضلاً على الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعاً ، وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان،إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان ، على حين أن غيرهم من

معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالي إلا بعد قرون وقرون [١] .

يقول المنجرة في هذا المقام وفي نهاية حديثه عن قضايا المستقبل الإسلامي ، الدراسات المستقبلية : الضرورة والواقع والآفاق : وطبيعي أن يرجع الشباب المسلم إلى الأصول للعثور على الأنماط التي تقود خطواته ، لان المستقبل الممكن والمنشود للعالم العربي والإسلامي يتركز أساسا على تجديد الفهم للإسلام ، إسلام الاجتهاد وليس إسلام التقليد ، ذلك الذي كان وراء سقوط حضارة ابتعدت تدريجيا عن مهمة الخلق والإبداع اللذين واصلهما المسلمون إلى يوم أعلن فيه بعض الفقهاء جزافا إغلاق باب الاجتهاد . إن الإسلام دين متفتح يترك للفرد مبادرة كبرى وحرية في التكيف والتغيير وتوقع التحولات ، فلو أن رسول الله ﷺوصحابته لم يتوقعوا المستقبل في فجر الإسلام ، ما كان هناك اليوم مليار و٢٠٠ مليون مسلم [٢]

---

[١] . ينظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٤ / ٤٧٩ .

[٢] ينظر الحرب الحضارية الأولى، مهدي المنجرة، المركز الثقافي العربي ، ط/٨ ، ٢٠٠٥ م ، صفحة ٢٩٧ .

وصدق الله العظيم في وعده للمؤمنين المستضعفين في الأرض حيث قال ﷻ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1] ، وهو ﷻ يعد الأمة المسلمة بالنصر والتمكين وامتلاك المستقبل كما وعد الجماعة المسلمة الأولى إن هي أحسنت التمسك ، والاتباع ، والإبداع في امتلاك مقومات نصر دين الله تعالى ، قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[2] وقال ﷻ :﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[3]

المطلب الثاني: العلاقة بين السنن الإلهية واستشراف المستقبل

---

[1] النور : ٥٥ .

[2] محمد: ٧ .

[3] يوسف: من الآية:٢١ .

إن دراسة السنن الإلهية المستقاة من منظور القرآن الكريم لهو من الواجبات العظيمة التي ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يلموا بها ويعرفوها؛ ليستفيدوا منها في تفسير الأحداث وبالتالي لتوظيف هذه المعرفة في استشراف المستقبل الذي ينبغي أن يكونوا عليه ، على اعتبار أن هذه السنن تحدث وفق علم الله تعالى وحكمته التي جعلت للأحداث والمتغيرات سننًا لا تتبدل ولا تتحول، وهي متحققة ونافذة ، على العموم بحيث لا تستثني أحدا ولا تحابي أحدا .

والسنن الإلهية بما تتصف به من خصائص مر بيانها ، تمثل مادة غنية وأدوات لا بد منها لاستشراف المستقبل ، فالمسلم إنما يستمد علمه من هذا القرآن الكريم ، وهو بهذا المصدر، كما ذكرنا ،الوحيد الذي يمتلك المصداقية في علومه ومعارفه، لأنه يستمدها من كلام الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قال ﷻ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ

مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [1] وهو بالتالي الأقدر والأصدق في التعبير عن استشراف المستقبل وفق ذلك كله دون ادعاء أو افتراء .

وعملية استشراف المستقبل كما تقدم ، تعتبر عملية منظمة تبدأ من دراسة الماضي بكل ما فيه من أحداث وسنن ، لتمر بالحاضر المعاش ، لتقيم الأمة موقعا بالنظر إلى ذلك ، ثم هي مدعوة بإعمال البصر والبصيرة في استشراف المستقبل الذي تنشد، ولا تتم هذه العملية بالشكل الصحيح إلا إذا درسنا سنن الله ﷻ فيما سبق من الأقوام ، ونظرنا إلى التاريخ بعين الناقد البصير .

وعليه فإن دراسة السنن الإلهية تعتبر الخطوة الأساسية في سبيل استشراف مستقبل زاهر للأمة الإسلامية .

إن علماء اليوم مدعوون كما يرى محمد رشيد رضا إلى ايلاء علم السنن الإلهية كل عناية ورعاية ، وهم مدعوون لاستلام دورهم في صياغة المستقبل[1] .

---

[1] فصلت: ٤٢.

والسنن الإلهية من منظور القرآن الكريم تبعث كما ذكرت سابقا في نفس المؤمن الطمأنينة والرضى ، هذه الطمأنينة وذاك الرضى ينبعان من ثبات واطراد وشمول تلك السنن وجريانها بسنة لا تتبدل ولا تتحول ، حيث يبقى المسلم منتظرا لوعد الله تعالى له إن هو أخذ بالأسباب وسار على تلك السنن ، فيجاري هذه السنن، وينتفع بها ويستفيد منها ليقينه بأن الله تعالى لا يخلف وعده .

ويمكن القول أيضاً أن معرفة المسلم للسنن الإلهية من منظور القرآن الكريم تؤهله بإذن الله تعالى لاستشراف المستقبل ، وتمنحه القدرة على ربط النتائج بالأسباب، من خلال أخذه للدروس والعبر من الأمم السابقة والتي ذكرت قصصها في القرآن الكريم ، لتكون لنا دليلا وهاديا في مستقبل أيامنا .

قال سيد قطب في هذا المقام: (فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وأدركوا مغازيها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت

---

(١) . ينظر: **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** محمد رشيد رضا ،٤/ ١١٥.

لهم الأهداف من وراء الوقائع ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، والى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام . واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق . ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ؛ بدون الأخذ بأسباب النصر ، وفي أولها طاعة الله ﷻ وطاعة الرسول ﷺ" [1] .

إذن فالعلاقة وطيدة بين دراسة السنن الإلهية وعملية استشراف المستقبل ، فإن المستقبل الإسلامي مرهون فيما وصل إليه الباحث في دراسته بحسن التعامل مع سنن الله تعالى في خلقه ، ومرهون كذلك في حسن توظيف تلك المعرفة لصالح المشروع المستقبلي للعالم الإسلامي ، وهذا وذاك منوط بحسن فهم آيات الله تعالى ، وحسن تدبرها ، وعبقرية الانطلاق منها إلى صياغة المستقبل الذي نريد ونحب .

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٤/ ٤٧٨ .

يقول الإمام المراغي: (إن النظر فى أحوال من تقدمكم من الصالحين والمكذبين يهديكم إلى الطريق المستقيم، فإن أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبيل المكذبين فحالكم كحالهم) [١] .

---

(١) . تفسير المراغي، ٤/ ٧٦ .